دقةُ الألفاظ وإيحاءاتُها في شعر المتنبي

قصيدتُه في مدح كافور «فراق» أنموذجًا

د. عبد الهادي خضير الحطاب

روى الصولي عن إسحاق الموصلي أنَّ رجلاً أنشد ابنَ هرمة قولَهُ:

باللهِ ربِّكَ إنْ دَخَلْتَ فقلْ لها: هذا ابنُ هرمةَ قائِمًا بالبابِ

«فقال ما كذا قلت، أكنْتُ أتصدق؟ قال: فقاعدًا

قال: كنْتُ أبول؟ قال: فماذا؟ قال: واقفًا.

ليتَكَ علمتَ ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى»[1].

لعل هذا الخبر من خير الأمثلة وأشدّها دلالة على إحساس الشاعر المرهف بالألفاظ، وتنبهه عليها تنبهًا متميزًا، ينم على ذوق وإحساس فنيين عاليين، وإدراك عميق لما بينها من تفاوت في الدلالة والمعنى.

وبذا كان للألفاظ المقام الأول في العملية الإبداعية، مادامت اللغة أداة المبدع الأدبي – شاعرًا كان أم ناثرًا – في تشكيل بنائه الفني، وهي وسيلته لنقل شعوره وتجربته إلى الآخرين، وهما ما يجب أن تصورهما الألفاظ وطريقة تأليفها أدق تصوير...

وإذا كانت المعاني «مطروحة في الطريق» كما عبّر الجاحظ فإن «المعنى»، أو بتعبير أدق الوصول إلى المعنى، لم يكن هدفًا بذاته، مادامت الألفاظ الرديئة تقوم مقام الجيد منها في الفهم والإفهام.

---

(1) كتاب الصناعتين (٧٤).

ومن قدرة المبدع الأدبي على اختيار ألفاظه ووضعها في مواضعها، يأتي تميزه من سواه، ولذا يتفاوت المبدعون في «أساليبهم» ممثَّلة بالألفاظ التي اختاروها والتي تعبِّر عن إحساسهم العميق بجمالها وبطاقاتها الإيحائية، وقدرتها على تجسيد المعاني في ذاتها، فضلاً عن المعنى العام الذي يؤلِّفه النظم.

ويظل المتنبي بين شعراء العربية – قدماء ومحدثين – علمًا بارزًا في هذا الباب، فمن يُنعم النظر في شعر هذا الشاعر، يتجلّى له المتنبي معماريًا فذًا، يُحسن هندسة بنائه الفني، إلى الحد الذي لا يكون في مقدور أحد – كائنًا من كان – أن يزحزح لبنة واحدة من هذه العمارة الباهرة الجميلة، أو أن يستبدل بها غيرها، لأن ذلك يأتي عنه «إما تبدّلُ المعنى الذي يكون منه فسادُ الكلام، وإما ذهابُ الرونق الذي يكون معه سقوطُ البلاغة»[٢]، كما قال الخطابي معبِّرًا عن بلاغة النص القرآني، ودقته في وضع الألفاظ في مواضعها.

وإذا كانت لنا – قبل هذه الدراسة – محاولتان لارتياد عالم المتنبي الشعري هذا، وسبر أغواره[٣]، وإذا كانت المحاولة الأولى قد انصبَّت على قصيدته في هجاء كافور، والمحاولة الثانية على قصيدته في عتاب سيف الدولة، فإن هذه الدراسة – وهي في مدح كافور – تسعى – فضلاً عن تأكيد ما قررته الدراستان السابقتان من دقة المتنبي في اختيار ألفاظه المعبِّرة والموحية ووضعها في مواضعها – لإبراز موضوع غاية في الأهمية، وهو مدى صدق المتنبي في مدح

(2) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٢٦).

(3) الدراسة الأولى: «المتنبي في معيار النقد البلاغي من خلال قصيدته «عيد» المنشورة في مجلة كلية التربية للبنات، ع٣ س ١٩٩٢. والدراسة الثانية: «دراسة نقدية بلاغية لقصيدة المتنبي» «واحرَّ قلباه» المنشورة في المجلة نفسها: م١٣ ج١ س ٢٠٠٢.

كافور، وهل كان هذا المدح يصدر عن إحساس المتنبي بأحقية هذا الرجل بالمدح؟... إذ ستتجلَّى لنا شخصية المتنبي الشعرية، شخصية فذة، متمكّنة من أدواتها الفنية، وماسكة بزمام اللغة تسيّرها كيف تشاء ويبدو لنا شاعرًا موهوبًا في اختيار ألفاظ في هذا المقام، هي أشبه «بالبلورات» التي تعطيك ألوانًا متعددة بحسب الزاوية التي توجّه منها نظرك إليها، لتختار بعد ذلك المعنى الذي تبتغيه أو المعنى الذي تعتقد أن المتنبي أراده ...

أمّا هو فيظل مستويًا في جلسته، متربِّعًا على عرشه ينظر إلينا من عَلٍ ونحن نجاهد في الوصول إلى مبتغاه... ويردد مع نفسه مبتسمًا:

أنامُ ملءَ جُفونِي عَنْ شوارِدِها ويَسهرُ الخَلْقُ جَرّاها ويختصمُ

بين يدي القصيدة:

تأتي هذه القصيدة وليدة صراع نفسي قاسٍ، كان يعيش فيه أبو الطيب المتنبي، وهو يغادر سيف الدولة مرغمًا بعد أن أحسّ الذل والمهانة في بلاطه، ولم يلمس منه بادرة لرد اعتباره، وهو الذي اصطفاه حبيبًا لنفسه، قبل أن يكون ممدوحًا يرتجي عطاياه.

لقد أحبَّ المتنبي سيف الدولة حبًّا متميّزًا ستتجلى صورته في هذه القصيدة، وكانت مدائحه فيه تصدر عن نفس معجبة بهذا الأمير الحلبي الذي استولى على قلب المتنبي بعظيم صفاته وجميل شمائله، وتنامى هذا الحب حتى صار عشقًا مَلَكَ على المتنبي كل مشاعره وأحاسيسه. وما كان للأمور أن تسير سيرها الطبيعي بين أمير السيف وأمير الكلام، وما كان للزمن أن يظل رخيًّا هانئًا للمتنبي، إذ سرعان ما استطاع أعداء المتنبي وحاسدوه أن يُوغروا صدر الأمير عليه، فيبدأ بإهمال المتنبي وتجاهله، ثم تقديم من هو أدنى منه عليه،

حينذاك نبّه المتنبي الأمير على ما يجري تلميحًا، ثم تصريحًا، حتى إذا لم يجد منه تغييرًا كاشفه بحقيقة ما يجري، في قصيدته «واحرَّ قلباه» وحذّره من مغبة تصديق ما يقوله أعداؤه فيه، وأنذره أنه سيغادره إلى سواه وأنه سوف يندم على تفريطه به، ولكن لات ساعة مندم.

وهكذا غادر المتنبي سيف الدولة على حبه الكبير له، وصار مضطرًا إلى أن يقصد كافورًا على ما يرى فيه من «قلّته في نفسه، ونقص عقله، ولؤم كفّه، وقبح فعله»[٤]، كما يقول أبو العلاء المعري، علَّ هذا الأسود المخصي يُحقق له ما عجزت عنه الفحول البيض، وتكون مجازاة كافور للمتنبي، وهو يستخلصه ممدوحًا دون سواه من الأمراء الذين كانوا يمنّون النفس بضم شاعر العرب إلى بلاطهم، ويبذلون له عطاياهم بلا حساب، أن يُحقق له حلم حياته «الولاية» التي اعتقد المتنبي أنها وحدها من تنصفه من دهره العاق الذي لا يعطي كلَّ ذي حق حقه، وأنها ستكون وسيلته في كيد أعدائه وحاسديه، ثم تحقيق ما تصبو إليه نفسه من سيادة وعز.

القصيدة من البحر الطويل، وهو صالح في تفعيلاته الثماني لاستيعاب مشاعر الألم والحزن التي كانت تعتصر قلب الشاعر، فضلاً عن أنه البحر المثالي لقصائد المديح عند العرب. أما قافيتها فهي «الميم» وهي ومعها «النون» خيشومِيّتان، يجري النَّفَس فيهما على شكل غُنّة[٥]، ويتكون بعد انطباق الشفتين وانحباس الهواء الخارج من الرئتين، ثم خروجه من الخيشوم بما يلائم

(4) شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري (معجز أحمد): (٤/ ٧٥).

(5) ينظر: دروس في علم أصوات العربية (٣٥). وكذلك الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني (٣١٧).

الأنين المكتوم المنبعث من نفس المتنبي المجروحة من سيف الدولة، ومن اضطراره إلى الوقوف بين يدي كافور مادحًا.

يعزّز هذا اختيار (الكسرة) حركةً لهذه الميم، فهي فضلاً عن مناسبتها لما كان يشعر به المتنبي من ذلٍّ وانكسار – عند مد الصوت بها أي: إشباعها – تكون ياءً معبِّرة عن الحسرة على ما فات، والألم مما هو واقع.

القصيدة واحد وأربعون بيتًا، وهي بهذا الطول لا تندُّ كثيرًا عن قصائد المتنبي الأخرى، حرص المتنبي فيها على أن يقدِّم نفسه لكافور، ليعرفه عن قرب، فهي أشبه ببطاقة تعريف للمتنبي عند كافور. فمنذ أول بيت فيها يذكر المتنبي كافورًا أنه، وإن اضطرَّ إلى فراق سيف الدولة، وعلى الرغم مما حصل بينهما من جفوة، لا يفكر في ذم الأمير الحلبي، أو الانتقاص منه، وبعبارة أوضح، إن مديحه لكافور لن يكون بهجاء سيف الدولة فهو مع كل ما فعله «غير مذمَّم». ثم شرع بتقديم نفسه لكافور وذلك من البيت الثاني في القصيدة، إذ يوضِّح سجاياه، وما يتركه من أثر في نفوس من يعاشرهم، رجالاً ونساءً، ثم بيّن طبيعة علاقته بسيف الدولة، وشروطه في اختيار من يكون صديقًا له ومفهومه الخاص للصداقة والصديق... ويستغرق هذا ستة عشر بيتًا من القصيدة. ينتقل بعدها أبو الطيب لمدح كافور مدحًا سنعرف طبيعته حين نقف على أبيات القصيدة. وإذا كان هذا المدح هو الغالب على الجزء الأخير من القصيدة، فإن إنعام النظر فيه، يؤكِّد أن المتنبي قد قاسم كافورًا كل أبياته، وهو يصف ما صادفه من لوم وما تعرَّض له من محاولات لثنيه عن عزمه على التوجه إلى كافور، وكأنه يريد أن يقول له إنه متفضِّل عليه بهذه الوفادة، وإن هناك من يراقب علاقتهما الجديدة هذه مرجِّحًا إخفاقها ليشمت بهما،

وبذلك فإنه يضع كافورًا في زاوية خانقة، وهو يصرِّح له بما يرجوه منه، وما يعقده عليه من آمال، فهو ملاذه الأخير، وهو سلاحه في تحقيق النصر على أعدائه، والانتقال به إلى حال النعيم الذي سيغيظ حسّاده ويخيّب ظن اللائمين... مضمِّنًا قصيدته أبيات الحكمة الخالدة التي تعكس خبرة المتنبي بالحياة والناس.

تحليل القصيدة:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ وَأَمٌّ ومَنْ يَمَّمتُ خَيرُ مُيمَّمِ

إنَّ الألم الذي يعتصر قلب المتنبي، وهو يفارق سيف الدولة مكرهًا وما مرَّ به من معاناة بعد هذا الفراق، واضطراره إلى أن يقصد كافورًا هي التي جعلت لفظ (فراق) مفتتحًا لقصيدته، ذلك «أن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس»[٦]، وبذلك جاءت نكرة استعظامًا لهذا الفراق، وما أحدثه في نفسه. ثم إنه قصد التنكير، حتى لا يصرّح باسم سيف الدولة، وهو ما يؤكِّده اختيار الاسم الموصول (مَنْ) دون التصريح بالاسم، مع أنه جمع بين الفراق والاسم الموصول، (فِراقٌ ومَنْ) فما إن تداعى إلى ذهنه الفراق حتى تداعى بعده مباشرة «مَنْ» فارقَهُ. ثم كرّر لفظة (فراق) بقوله (فارقتُ) ليؤكِّد أنه هو الذي اختار الفراق، ولم يطلب منه أحد ذلك، فهو عزيز النفس، أبيٌّ لا يحتمل أيَّ إهانة، ولا ينتظر أن يُطلب منه المغادرة، بل هو الذي يبادر بذلك مهما كانت المنافع واللذات التي يتحصَّل عليها، وهو ما يؤكِّده البيت التالي لهذا البيت.

(6) دلائل الإعجاز (٩٨).

إنَّ الصراع النفسي الذي كان يعيش فيه المتنبي، بين حبِّه العميق لسيف الدولة، وما لمسه منه من تكريم وحفاوة، وما وجده منه بعد ذلك من إهمال وجفوة، وعدم مبادرته في رد إهانة من أهانوه، جعله مختارًا بين أن يذمَّه أوْلا، وهكذا قال (غير مذمَّم) ذلك أن لفظ (مذمَّم) معناه «مذموم جدًا»(٧)، فكأنه أراد أن يقول إن سيف الدولة مذموم، ولكن ليس مذمومًا جدًّا.

ولعل هذه المقابلة التي ميدانها ذات المتنبي وتفكيره، بين حاليه يوم كان عند سيف الدولة واضطراره إلى مفارقته، ومقته الكبير لكافور واضطراره إلى قصده، هي التي جعلته – دون وعي منه – أن يخلق هذا التوازي الواضح بين شطري البيت، فلفظه (فراقٌ) بمقابلة (أَمٌّ)، (ومَنْ فارقتُ) بمقابلة (ومَنْ يمَّمتُ)، و(غيرُ) بمقابلة (خيرُ) و(مذمَّم) بمقابلة (ميمَّم)...

إنها تعادلية معنوية خلقت توازيًا لفظيًا.

بدأ المتنبي عجز البيت بلفظة منكَّرة (أَمٌّ) كما بدأ الصدر بلفظة (فراقٌ)، فكما استعظم فراق سيف الدولة استعظم كذلك أَمَّ كافور، فما كان في تصور أبي الطيب أنه سيضطر يومًا إلى أن يقف بين يدي رجل مثل كافور ليمدحه. وكما لم يصرح باسم من فارق، لم يصرِّح باسم من أَمَّ، وكأنه يعبّر بذلك عن جهله بحقيقة هذا المأموم، وما سيكون عليه حاله معه، وربما كان هذا ما جعله يكرِّر الألفاظ المعبِّرة عن هذا الأَم ثلاث مرات (أَمّ... يممّت... ميمَّم)، في حين ردَّد لفظ الفراق مرتين (فراق..:. فارقت) فأَمُّهُ كافورًا، هو الأهم عنده الآن، وهو ما يشغل باله، فهو لا يزال يفكر فيه وماذا ستكون نهاية ما أقدم عليه، وهو ما جعله يسند الفعل إلى نفسه (يممَّتُ) فهو الذي اختار كافورًا

(7) مختار الصحاح (٢٢٤).

فقصده، على الرغم من لوم اللائمين، الذين حاولوا ثنيه عن عزمه، كما سيصرِّح بذلك في أبيات القصيدة اللاحقة.

بقي أن نسأل لماذا اختار المتنبي لفظ (الأَمّ) فقال (أَمَّتُ، يممَّتُ، ميمَّم) دون غيرها كالقصد أو اللقاء أو الوفادة أو سواها من المرادفات الدالة على المعنى نفسه؟ يمكن القول إن شعور المتنبي بالمرارة وهو يُكْرِهُ نفسه على قصد كافور هذا العبد الأسود والمخصي الذي تزدريه العين حالما تقع عليه، واضطراره إلى مدحه بعد أن أحسَّ أن لا سبيل أمامه لتحقيق ما تصبو إليه نفسه سوى بيع حريته وشعره لكافور، هو الذي جعله يختار ألفاظًا قريبة من لفظ (التيمّم)، وهو ما يضطر إليه المصلّي حين لا يجد ماءً فيلجأ إلى تعفير يديه وجبهته بالتراب، فلولا الحاجة لقضاء الواجب (الصلاة) وامتناع الماء عليه لما مسَّ التراب، وهذا هو حال المتنبي فحاجته ألجأته، بعد غياب الماء عنه (سيف الدولة)، إلى أن يتيمَّم التراب (كافورا) أملاً في تحقيق ما يريده.

وَمَا مَنْزِلُ اللَّذاتِ عِنْدي بِمَنْزِلٍ إذا لَمْ أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وأُكَرَّمِ

من البيت الثاني في القصيدة بدأ أبو الطيب تقديم نفسه لكافور، فهو يبيِّن له أوّلاً سبب مغادرته بلاط سيف الدولة، على ما كان متوافرًا له من لذات ومُتع هناك. لأنه يريد ما هو أعظم وأبقى... إنه يريد التعظيم والتكريم... وكأنه يضع بين يدي كافور أهم شروطه عليه حتى يمكث عنده.

ربما كان إحساس المتنبي بنزول قيمته وقدره، بعدما تعرَّض له من إهانات في بلاط سيف الدولة، هو الذي دعاه إلى اختيار لفظ (منزل) دون سواه، فهو مكان نزلت فيه قيمته، فضلاً على أنه قد أضاف لفظة (منزل) إلى (اللذات) بكل ما تعنيه اللذة من استسلام الإنسان لغرائزه وانقياده لأهوائه.

يؤكِّد ذلك، بل يقوّيه، إن لفظة (اللذة) مرتبطة بالفعل (لذّ)، وإذا ما قلبنا الفعل صار (ذلّ)، وهكذا فإن اللذة في هذا المنزل إذا ما نُظر إليها من جهة ثانية فإنها ذلٌّ، وإشارة منه إلى كثرة هذه اللذات وتنوعها جاء بها بصيغة الجمع (اللذات).

وتأكيدًا منه لاختصاصه بهذه النظرة وتفرُّده بها قال (عندي)، فقد لا يكون هذا رأي سواه من الناس، لاسيما أولئك الشعراء الذين ارتضوا البقاء في بلاط سيف الدولة، ذلك أن ما يهمهم هو ما يكسبونه وما يتحقق لهم من لذات ومتع، أما هو فقد تفرَّد بالارتفاع فوق هذه الغرائز والأهواء... إنه لا يرضى أن ينزل هذا المنزل، إنه لا يقبل أن (يلذّ) جسده بما (يذلَّ) نفسه... هذا هو (قياسه) للأمور، ولذا نراه يكرِّر لفظة (منزل) مسبوقة بباء زائدة، قيل عنها إنها مقيسة إذا وقعت في خبر ما[٨].

إن ورود الباء زائدة قياسية قبل لفظ (منزل) إيحاء بإمكان استغناء المتنبي عن هذا المنزل، وإن هذا هو مقياس حياته، الذي يعرضه على كافور، حتى يكون على بيّنة وهو يضم أبا الطيب إليه... إنه لا يتهالك على اللذات الجسدية المتدنية، إنما هو يريد التبجيل والتكريم، وهذا ما دعاه إلى أن يأتي بهما بصيغة الفعل (أُبجِّل.. أُكرِّم) كي يؤكِّد تجددهما واستمرارهما، ثم ضعَّفَهما ليشير إلى أنهما تبجيل وتكريم متميزان، أو أنه يسعى إلى تبجيل وتكريم مبالغ فيهما، ثم هو قدَّم (التبجيل) على (التكريم) حين قال (أبجَّل... وأكرَّم)، ذلك أن التبجيل هو التعظيم وهذا لا يكون إلاّ في المعاملة والسلوك، أما التكريم فيمكن

(8) الجنى الداني في حروف المعاني (١١٥).

أن يكون بالمال أيضًا، ولكنّ المقدّم عند المتنبي هو التبجيل فهو الأهم، لذا قدّمه.

يُلاحظ أنه قال في الشطر الثاني (عنده) إشارة إلى المنزل وفي الشطر الأول (عندي) إشارة إلى نفسه، وهذا يُوحي أن المتنبي لم يرد بقوله (عنده) المنزل، إذ كان بإمكانه أن يقول (فيه)، وإنما أراد به سيف الدولة، وإنْ لم يصرِّح بذلك، فكأنه خلق بذلك مقايسة بين ما يراه هو، وما يراه سيف الدولة، فإذ يرى سيف الدولة، أن المتنبي شاعر، وما يهمه هو الحصول على المال، مصدر اللذات والمتع، يرى المتنبي أن المهم عنده هو التبجيل والتكريم... يقوّي ذلك، أننا نستطيع أن نقرأ لفظ (منزل) بضم الميم (مُنزل) بصيغة اسم الفاعل، فتأتي موافقة تمام الموافقة لما ذهبنا إليه، من أنه أراد بلفظ (منزل) سيف الدولة، أو حتى بلاطه الذي تماهى به فصارا شيئًا واحدًا.

سَجِيَّةُ نَفْسٍ مَا تَزَالُ مُلِيحَةً مِنَ الضَّيْمِ مَرْمِيَّةً بِهَا كُلُّ مَخْرَمِ

يؤكِّد المتنبي في هذا البيت ما قاله في البيت السابق «عندي» أي إنه مخصوص بهذا الأمر. فأوضح أن هذا هو طبعه وسجية نفسه. ومعلوم أن السجية هي «الخُلُق والطبيعة»[٩]، ولعله أراد أن يؤكِّد أن نفسه لا تهدأ ولا تسكن إلاّ للتبجيل والتعظيم، ولذا تداعت لفظة «سجية» إلى ذهنه، دون سواها من مرادفاتها، لقربها من «السجو» أي السكينة والهدوء، واستعمالها مضافة إلى «نَفْس» التي جاءت نكرة، والمراد بها نفس المتنبي، كما يفسرها السياق، يؤكِّد اختصاص نفس المتنبي بهذا الأمر وهو ما دعاه إلى المجيء بها نكرة تعظيمًا لها، أيْ نفسٌ وأيُّة نفس، تلك هي نفس المتنبي.

(9) مختار الصحاح (٢٨٧).

إنّ المتنبي – على ما كان يلقاه من تكريم وتعظيم حيثما حلَّ – ظل يشعر دائمًا أنه لم ينل حقه، ولم يحقِّق ما يصبو إليه وظلّ دائمًا – على ما وصل إليه من مكانة يحسده عليها كل الشعراء – يعيش في صراع داخلي، يؤججه إحساسه أن من هو أدنى منه قدرة وموهبة، قد أعطاه زمانه فوق ما يستحق، ولكنه – وهو المتنبي بكل عظمته – ما يزال ينتظر عطايا ممدوحيه وهباتهم، وفيهم من لا يدانيه في خصاله. وهكذا ظل يشعر دائمًا بالضيم، وأن دهره يناصبه العداء وأنه لم ينل ما يريده، وهو ما جعله يستعمل لفظ «مُلِيحَة» التي – وإِنْ كان معناها مشفقة أو خائفة – فإنها توحي بمعنى مَنْ لوّحته الشمس إذا «غيَّرته وسفَعَتْ وجهَه»[١٠].

فقد عانى كثيرًا، شأنَ من لوّحته الشمس وهو يسير تحتها مضطرًا وهو ما دعاه إلى استعمال لفظ «الضيم» التي تعني «الانتقاص»[١١] دون سواها، وإذا كانت هذه اللفظة مقابلة «للعز» أدركنا أن هذا هو هَمُّ المتنبي الكبير وهو ما جعل نفسه قلقلة حيرى لا يقرّ لها قرار ولا تستقر على حال.

ولكي يُطمئن أبو الطيب نفسه بأن هذا الأمر خارج عن إرادته، وأن هناك قوى أكبر منه، لا يقوى على مصارعتها ولا يستطيع لها تبديلاً، هي التي ترسم له طريق حياته قال «مرميًا» بصيغة اسم المفعول، ولم يسند الفعل إلى نفسه، فهو لم يُورد نفسه هذا المورد، وإنما هي مقاديره وحظه وزمانه الرديء جعلته يسلك الطرق الوعرة والمسالك الصعبة، هربًا من الضيم والذل... ولذا قال «مرميًا بها» فقد ابتلي قدرُهُ به كما ابتلي هو به.

(10) م. ن (٦٠٨).

(11) العين: (٧/ ٧٢).

وإذا كانت لفظة «مخرم» هي «ما خرمَ السيلُ، أو طريق في خف أو رأس جبل»[١٢]، فإن ورودها هنا تصوير صادق لما كان يشعر به المتنبي، فكأن الضيم جبل جثم على صدره، أو أن قدره يحاربه فيقطع عليه طريقه بجبل كبير، يحاول هو أن يجد فيه لنفسه مخرمًا. وقد لا نغالي إذا ما قلنا إن هذا «المخرم» عند المتنبي إنما هو كافور، الذي لاح له أملاً ضعيفًا، أو (خرمًا) صغيرًا يحاول بالاستفادة منه أن ينفذ إلى تحقيق ما يريده... وبذا يبدو لنا سيئ الظن بكافور منذ البدء، فهو ليس شيئًا كبيرًا يعقد عليه الآمال وربما لم يجده أهلاً لتحقيق ما يصبو إليه، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل، وقد سُدَّتْ الطرق جميعًا في وجهه... إنه ليس في وضع من يستطيع المفاضلة أو الاختيار.

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكٍ بأَجْفانِ شَادنٍ عَليَّ وَكَمْ باكٍ بأَجفانِ ضَيْغَم
وَمَا رَبَّةُ القُرْطِ المليحِ مكانُهُ بأَجْزَعَ منْ ربِّ الحُسامِ المصمِّمِ
فَلَوْ كان ما بي مِنْ حبيبٍ مُقنَّعٍ عَذَرْتُ ولكِنْ مِنْ حَبيبٍ مُعمَّمِ

في هذه الأبيات يصوِّر المتنبي مكانته عند من يعاشرهم وما يُحدثه فراقه في نفوسهم، نساءً ورجالاً، من ألم يدفعهم جميعًا إلى البكاء حدَّ الجزع، حتى إن الرجال، وهم من يُفترض فيهم الجَلَد والصبر، أكثر جزعًا من النساء لفراقه. ثم يلتفت إلى حاله ليقول إنه لأمر غريب أن يعاني ما يعانيه من ألم الفراق وشدة الوجد لأنّه أحب رجلاً (سيف الدولة) إذ جرت العادة أن يعاني الرجل من حب امرأة وفراقها، والناس تعذره في هذا، وهو يعذر نفسه كذلك، ولكنه المتنبي، عجيب في كل شيء، متفرد عن الآخرين، حتى فيمن يحب.

(12) م. ن: (٤/ ٢٥٩).

ابتدأ البيت الرابع بقوله: (رحلتُ) وهي وإن كانت بمعنى سار وانتقل، إلاّ أن علاقتها بالرَّحْل واضحة، فـ «الرحل مسكن الرجل وما يستصحبه من الأثاث»[١٣]، فهل أراد المتنبي أن يقول إنه لم ينقل من بلاط سيف الدولة سوى مسكنه وأثاث بيته؟ وإنه لا يزال يعيش في ذلك المكان بروحه؟... أم إنه كان يشعر أنه في رحلة وأنه سوف يعود إلى هناك مهما طالت سفرته؟ يؤكِّد ذلك قوله (رحلتُ) إذا أسند الفعل إلى نفسه، فهو الذي اختار الرحيل، ولم يطلب ذلك منه أحد، ولذا فإن عودته مرهونة بقراره هو.

إنَّ من يُنعم النظر في هذه الأبيات الثلاثة، يجد فيها ست كنايات متتابعات، اثنتين في كل بيت، إحداهما عن المرأة والأخرى عن الرجل: «باكٍ بأجفان شادن، باكٍ بأجفان ضيغم» و«ربة القرط المليح مكانه، رب الحسام المصمم» و«حبيب مقنع، حبيب معمم». وتتابع هذه الكنايات يوضِّح حقيقة موقف المتنبي من هؤلاء الذين فارقهم (سيف الدولة وأهل بيته) وما يحمله لهم من حب واحترام، فهو حريص أشد الحرص على ألاّ يسمِّيهم بأسمائهم، بل يكنِّي عنهم، وهو يتحدث عن مشاعرهم نحوه، وكأنه يريد أن يلمّح لنا بمشاعره هو عنهم، فهو لايزال يحمل لهم كل الودِّ والاحترام ولا يريد لأسمائهم أن تُبتذل بمداولتها في الشعر في غير المديح، ولعل في قوله «ربة القرط المليح مكانه» خير دليل على تأدبه في الحديث عمن يحب، فقد نسب الملاحة إلى مكان القرط دون أن يسميه، والعبارة كلها كناية عن الجمال، وليست حديثًا صريحًا فيه.

يبدو أن تأثر المتنبي لموقف المرأة المودِّعة وهي تبكي لفراقه، هو الذي دعاه إلى تأخير متعلق (باك) وهو (عليَّ) إلى آخر العبارة، فهو في موقف شغله

(13) مختار الصحاح (٢٣٧).

بكاء هذه المرأة لا سبب بكائها، وهو ما جعله يقدِّم بكاءها على بكاء الرجل، وحتى لا يُفهم من كلامه هذا أنه قدّمها لأنها الأكثر بكاءً، تدارك ذلك في البيت اللاحق حين نفى أن تكون المرأة أشد جزعًا لرحيله من الرجل، مع أنه ظل محافظًا على تقديم المرأة على الرجل في ترتيب العبارة في الأبيات الثلاثة.

وإذا كان المتنبي قد آثر التعبير بالكناية، للتمويه على من عناهم بأبياته السابقة، فلا شك في أن وصف المرأة بالشادن، وربة القرط المليح مكانه، والحبيب المقنع، ووصف الرجل بأنه ضيغم، ورب الحسام المصمم، وحبيب معمم، يوضح أن هؤلاء الباكين لفراقه ليسوا من عامة الناس، الذين يسهل بكاؤهم إنما هم من عِلْيَة القوم، وبكاؤهم لا يكون إلا للأمر الجلل. ولابد أن يستوقفنا تعبيره المجازي (باك بأجفان) فالبكاء إنما يكون بالعيون، فلماذا جعله بالأجفان على طريقة المجاز المرسل؟ أتراه أراد أن يلمّح إلى أنه شُغِل بمنظر هذه الجفون التي أغرقتها الدموع؟ أم أنه أراد أن يشير إلى غزارة ما ذرف لفراقه من دموع، حتى إنها ملأت العيون ثم غطت الجفون فصار الدمع يبدو خارجًا منها لا من العيون؟

وإذا كان بعض الشرَّاح قد فسّر قوله: فلو كان ما بي... (البيت) على أنه «يقول: لو كان الذي أشكوه من الغدر بي كان من امرأة عذرتُها، لأن شيمة النساء الغدر، ولكنه من رجل فلا أعذره»[١٤]، وشرحه آخر بقوله: «لو كان ما بي من الشوق إنما هو لحبيبي المقنع، لعذرت نفسي في فراقه، لأني فارقته لطلب المجد والعلا، ولكن أي عذر في مفارقة حبيبي المعمم؟ وما رجوته من

(14) شرح البرقوقي: (٤/ ٢٦٤).

قصد غيره، كان موجودًا عنده، يظهر الندم على فراق سيف الدولة»[١٥]، فإننا نرى أن المتنبي لم يُرد (الغدر) كما لم يُرد (الندم)، وإنما أراد (الحب) وما أثّر فيه هذا الحب من آثار اعتاد الناس أن يروها على الرجل وهو يعاني من حبه للمرأة، أما أن تكون هذه نتيجة معاناة حبه لرجل آخر مثله، فهذا ما لم تَجْرِ به العادة، وهو ما لا يعذر نفسه عليه.

ويُلاحظ أن المتنبي حذف المفعول به في قوله (عذرتُ) فهل تراه أراد (الحبيب) فهو يعذر المرأة إن صدّتْ وأخلفَتْ وعودَها حتى يزداد حبيبها تعلقًا بها؟ أما (الحبيب) الرجل فلا يعذره لأن هذا ليس من شيمة الرجال! أو أنه أراد (نفسه) أي إنه يخاطب نفسه مستغربًا ما أصابها لأنها لم تُعَلِّق امرأة فتُعذر، إنما عُلِّقت رجلاً.

رَمَى واتَّقَى رَمْيي ومِنْ دُونِ ما اتَّقَى هوًى كاسرٌ كفّي وقوسي وأسْهُمي

لم يعتد المتنبي السكوت على من آذاه، أو لم يُحسن معاملته. ولكن حين يأتي ذلك من حبيب يهواه، فإنه لا يردّ عليه ليس عجزًا أو ضعفًا، إنما هو هواه الذي يمنعه من رد الإساءة إليه.

يلمّح أبو الطيب إلى أنه لم يبادر بالإساءة، وهكذا بدأ بيته بلفظ (رمى) فالآخر هو الذي بادر بالفعل... ويُلاحظ أنه لايزال مصرًّا على عدم التصريح باسم من يعينه في كلامه وإن عاد الضمير في (رمى) على «الحبيب المعمم». وإذا كان معنى الفعل (رمى) واضحًا، فإن من دلالات الرمي إلقاء الشيء من اليد، فهل أراد المتنبي أن يقول إن سيف الدولة هو الذي فرّط به واستغنى عنه؟ وإنه لا

(15) شرح أبي العلاء المعري: (٤/ ٧٧).

يستطيع مجازاته بالمثل، لأنه يهواه؟ ويُلاحظ أنه حذف مفعول (رمى) فهل تعمّد ذلك ليُوحي أنه أخطأ في رميته ولم يصب المقصود؟

وكي يؤكد أن هواه مع سيف الدولة، دائمًا، وأنه لا يفكِّر في هجوه أبدًا، قال: «ومن دون ما اتقى هوى كاسر» بصيغة الجملة الاسمية، وجاءت (كاسر) بصيغة اسم الفاعل للتدليل على ثبات هذا الهوى في قلبه، ومنعه من رد الإساءة إلى الحبيب. ولاشك في أنه حين استعمل لفظ (هوى) من بين مرادفاتها، إنما أراد أن يؤكِّد أن هذا هوى روحه، فالهوى هو «هوى النفس»(١٦) ...إنه يعشق سيف الدولة، وهذا وحده ما يمنعه من هجائه، مكنّيًا عن ذلك بكفه وقوسه وأسهمه، فقصائده قادرة على النفاذ إلى من يُسيئون إليه نفاذ السهام، ولكن سيف الدولة اتقى ذلك بأقوى حجاب، وهو هواه في قلب المتنبي «وهذا عتاب لطيف»(١٧).

إذا سَاءَ فِعْلُ المرْءِ ساءَتْ ظُنُونُهُ وصدَّقَ ما يعتادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وعَادى محبّيهِ بقولِ عُداتِهِ وأصْبَح في ليلٍ منَ الشَّكِ مُظلِمِ

كعادة المتنبي في الانطلاق من قيود الخاص إلى رحابة العام في صوغ أبياته الحكيمة، يرسِّخ هنا تجربته الخاصة مع سيف الدولة في بيتين يضمان حكمة تصلُح لكل زمان ومكان... ولاشك في أن سلوك المتنبي هذا المسلك هنا إنما يترجم ذكاءه في عتاب سيف الدولة عتابًا مؤدَّبًا ما كان ليسلكه لولا حبه له، فكأنه بذلك يؤكِّد ما قاله في البيت السابق من أن هواه يمنعه من هجائه. فمع إحساس المتنبي بالضيم الذي لحقه من نهاية علاقته بسيف الدولة على هذا النحو، وشعوره بظلمه له وهو يصدّق قول أعاديه وحسّاده فيه، دون أن يميِّز

(16) مختار الصحاح (٧٠٢).

(17) شرح أبي العلاء المعري: (٤/ ٧٧).

صدقه من كذبهم، لا يسمّيه باسمه ولا يخاطبه خطابًا مباشرًا، كما أنه لا يقف منه موقف الواعظ الناصح، وإنما صاغها حكمة مطلقة من قيود الزمان والمكان أو الارتباط بأشخاص بأعيانهم، وكأنه أراد بذلك أن يتجنب الوقوف موقف المتهم الذي يحاول أن يبرّئ نفسه، فتبدو حجته ضعيفة، إنما أراد أن يذكّر سيف الدولة بمنطق الأشياء وسببية الأحداث والمواقف.

إنه في هذين البيتين يلخّص جوهر خلافه مع سيف الدولة، معرّضًا به تعريضًا خفيًا، لأنه أساء الفعل والتصرف معه، فمن الطبيعي أن تسوء ظنونه فيه، بما يسهّل وقوعه في الوهم وعدم رؤيته الأشياء بوضوح، وهذا الأمر يدفعه حتمًا إلى تصديق ما يقوله أعداؤه فيه، فيبقى متخبطًا في شكوكه وأوهامه.

يلاحظ هنا أن الشاعر قلب المعادلة، إذ إن المنطق يقتضي أن تسوء ظنون الإنسان أو أفكاره فيبدأ بتصرفات خاطئة هي نتيجة هذا المنطق الخاطئ الذي يوجهها، وهذا ما اعتاده الناس وألفوه، ولكن المتنبي قلب المعادلة فجعل ظنون المرء وأفكاره السيئة، هي نتيجة أعماله وتصرفاته السيئة، لقد عكس طرفي المعادلة، ولكنها ظلت صحيحة فقد جعل النتيجة سببًا والسبب نتيجة، ثم عاد بعد ذلك ليقلب المعادلة مرة أخرى فتعود كما اعتدنا أن نراها، فهو يبدأ بفعل المرء السيئ، الذي يكون سببًا للأفكار السيئة لتقود هذه بدورها إلى أفعال سيئة أخرى هي نتيجة حتمية للظنون السيئة... وفي علاقة سيف الدولة بالمتنبي يكون تسلسل الأحداث كما يأتي: أساء سيف الدولة التصرف مع المتنبي فساء ظنه به لسوء ما انطوى عليه، ووقع في الوهم الذي أدى به إلى معاداة محبيه (المتنبي) لأنه صدّق قول أعدائه فيه.

إن إحساس المتنبي بالسوء لما حدث، دفعه إلى تكرار الفعل (ساء، ولكنه لا يزال محبًّا لسيف الدولة، ولذا نجده في المرتين لم يسنده إلى (المرء) مباشرة، وإنما أسنده إلى (الفعل) و(الظنون) وجاء بلفظ (المرء) بقصد التعميم، وكأنه في كل ذلك يحرص على تنزيه سيف الدولة بعدم نسبة السوء إليه. ولكن حين ذكر الأفعال اللاحقة (صدّق) و(عادى) و(أصْبح) وهي أقل سوءًا من (ساء) أسندها إلى (المرء) مباشرة. بل إننا نلمس محاولة خفية من المتنبي للدفاع عن سيف الدولة، حين جعل معاداته نتيجة الوقوع في الوهم، إنها تسويغ مبطَّن ومحاولة لالتماس العذر له فيما وقع فيه.

إن المتنبي هنا يقدّم لنا أنموذجًا للعتاب الراقي المهذَّب الذي قلّما نجده حتى عند المتنبي نفسه، في غير علاقته بسيف الدولة، وهو نتيجة واضحة لحب المتنبي لسيف الدولة، وهو ما أكَّده بقوله (محبيه) فهو لايزال على الرغم من كل ما حدث محبًّا له، وإن هذا الحب يمنعه من الإساءة إليه من قبل أو من بعد، ولذا قال (وعادى محبيه بقول عداته)، إذ اختار لفظ (قول) ليوحي أن ما بنى عليه سيف الدولة ظنونه وأوهامه إنما هو (قول) صادر من أعداء له، إنه مجرد كلام لا نصيب له من الصحة والواقع، ولا تخفى دلالة (قول) وارتباطها (بالقيل والقال) وهو الكلام الهذر الذي لا يستند إلى شيء من الحقيقة والواقع.

يقوّي هذا ذكره لفظ (قول) مسبوقة بهذه الباء التي تفيد الاستعانة[١٨]، فكأن سيف الدولة حين لم يجد في سلوك المتنبي معه، ما يدعو إلى معاداته، استعان بقول أعدائه وكارهيه، ولاشك في أن نسبة الأعداء إلى (الهاء) التي

(18) يُنظر الجنى الداني (١٠٣).

تعود على سيف الدولة إشارة صريحة من المتنبي إلى أن هؤلاء القائلين زورًا عليه هم أعداء سيف الدولة قبل أن يكونوا أعداء المتنبي. وكي يُشير إلى كثرتهم قال (عُداته) ذلك أن لفظ (عدو) «اسم جامع للواحد والجميع والتثنية والتأنيث والتذكير... ويُجمع العدو على الأعداء والعِدى والعُدى والعداة والأعادي»[١٩]، فكأنه أراد كثرة هؤلاء الأعداء الحالمين بتخريب صداقتهما ثم إننا نلمح ارتباط لفظ (عداته) بالعادي وهو «الظالم والعِدى بالكسر الغرباء... وقوم عدى إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلفًا»[٢٠]،... لقد أراد أن يُوحي بأن هؤلاء ليسوا أعداءً لسيف الدولة فحسب، إنما هم ظالمون له وللمتنبي وهم غرباء طارئون لا تربطهم بسيف الدولة ما يربط المتنبي به.

إن إحساس المتنبي العميق بمفارقة ما حدث، تجلَّى واضحًا في تعبيره عنه بألفاظ تحمل روح المفارقة كما في قوله:

«وأصبح في ليل» جمع بين نقيضين (الصباح والليل)، وفي اعتقادنا أن المتنبي كان واعيًا لهذا، بل إنه تقصده لغرض كان يعينه، فهو يعرّض بسيف الدولة تعريضًا خفيًّا جدًا، ذلك أن سيف الدولة، بعد تصديقه قول أعدائه في المتنبي، أعتقد أنه قد أصبح في جليّة من أمره، وتوضَّحت له حقيقة الأمر، في هذا الوقت ذاته إنما يكون قد أغرق نفسه في ليل من الشكوك المظلمة والظنون الموحشة، فما عاد يميِّز الصديق من العدو أو الحق من الباطل. وهكذا لم يكتف بلفظ (ليل) وإنما وصفه بالظلام إمعانًا في تصوير هذا الليل الذي ألقى سيف الدولة نفسه فيه،

(19) العين: (٢/ ٢١٦).

(20) لسان العرب: مادة (عدا).

مستعينًا بالتشبيه البليغ (ليل من الشك مظلم) ليرسم لنا صورة قاتمة لما يحل بالمرء وهو ينساق وراء شكوكه وظنونه.

أُصَادِقُ نَفْسَ المرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وأعْرِفُها في فِعلهِ والتَّكلُّمِ

عاد المتنبي إلى تقديم نفسه لكافور، وتصوير ما ينماز به من خِلال وطبائع. ولا أدري لماذا أشعر وكأن المتنبي يحاول هنا أن يسوِّغ للائميه قصده كافورًا، فها هو يوضِّح أنه لا يروم من صداقته للصديق هيأته وجسمه، إنما نفسه وما يُترجم عنها من أفعال وأقوال...

وكي يؤكِّد صدقه في علاقته بالصديق المختار (كافور) جاء بالفعل (أصادق) دون سواه مثل (أصاب) ليدل على صدق مودته. وقد أتى بلفظ (نَفْس) مقابل لفظ (جسم) مع أن المقابل له هو لفظ (روح)، وربما كان سبب ذلك أن (نفس) تُستعمل، فضلاً عن دلالتها على الروح، للدلالة على «جملة الشيء وحقيقته»[٢١]، فضلاً عن «أن الروح هو الذي به الحياة، والنفس هي التي بها العقل»[٢٢]،...فكأنه أراد التلميح للائميه أن ما يهمه من كافور حقيقته وعقله لا جسمه، وربما يقوّي ذلك استعماله لفظ (جسم) دون (جسد) لدلالة الأول على العِظَم، فقولهم «أجسم الشيء، أي عظم، فهو جسيم وجسام»[٢٣]،... فالمتنبي لا يصادق الناس لضخامة أجسامهم أو جمالها واعتدالها، وإنما هو يبغي نفوسهم، في صفائها ونقائها وصدق مودتها، وحتى يُجيب من يسأله: وأنّى لك معرفة ما في نفوس الآخرين؟ قال: (وأعرفها في فعله والتكلم)، مقدّمًا الفعل على الكلام، لأنه الأكثر دلالة على دخيلة

(21) لسان العرب: مادة (نفس).

(22) لسان العرب: مادة (نفس).

(23) الصحاح: مادة (جسم).

الإنسان، أما الكلام فقد يكون خادعًا، ويحتاج إلى ذكاء وخبرة وتجربة حتى تعرف نَفْسَ الإنسان من كلامه.

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّي وأعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أجْزِهِ حِلْمًا على الجَهلِ يَنْدَمِ

إذا كنا قد رجَّحنا أن أبا الطيب يعني (بالصديق) في البيت السابق كافورًا، فإننا نرجّح أنه يريد (بالخِل) في هذا البيت سيف الدولة، فها هو يؤكِّد ما كان قاله من أن حبه له، وما بينهما من صلات، تمنعه من رد الإساءة إليه، وأنه على ثقة بأنه سيندم على ما ارتكبه من جهل وحماقة بحقه.

لا يزال المتنبي يعاتب سيف الدولة عتابًا مؤدَّبًا خفيًا، فهو لا يخاطبه مواجهة، ويبتعد عن نسبة كل ما لا يليق به إليه، إذ يلجأ إلى أسلوب الحذف لهذا الغرض فيقول (وأحلم عن خلِّي) إذ إن هناك محذوفًا هو (جهل) أو (إساءة) خلِّي، وهذا الحذف أفاد – فضلاً عن التنزيه – تعظيم هذا الحلم لأنه عام لكل ما يصدر عن الخليل دون أن يحدَّ ذلك بإساءة أو جهل، أو أي شيء آخر محدود.

ولا شك في أن استعمال المتنبي لفظ (خلِّي) دون لفظ (صديق) يوضِّح الفرق بين مكانة الرجلين (سيف الدولة وكافور) من نفسه، فكافور (صديق) أما سيف الدولة (فخليل)، والخل هو «الصديق المخلص... والخليل الصادق أو من أصفى المودة وأصحها»[٢٤]. وقد قالها بالإضافة إلى ياء المتكلم ليشير إلى أنه هو الذي اختص سيف الدولة بهذه العلاقة إذ اختاره خليلاً له.

(24) القاموس المحيط: مادة خلل.

وحتى يوضِّح لنا المتنبي أن حلمه وعفوه عن إساءة الخليل أكبر من جهل هذا، فإنه استعمل لفظ (حلمًا) بالتنكير فيما جاء (الجهل) معرفة، فالتنكير أفاد الإطلاق أو التعظيم، أيْ حلمًا بلا حدود، أما جهل الخليل فإنه محدود بما فعله وبدرَ منه. كما وضع الفعل (يندم) في آخر البيت ليشير إلى أن نهاية هذا الخليل – سيف الدولة – هي الندم.

وإنْ بَذَلَ الإنسانُ لي جودَ عَابِسٍ جَزَيْتُ بجُودِ التَّارِكِ المتُبسِّمِ

يستمر المتنبي في تقديم نفسه لكافور، مبينًا طريقة تعامله مع ممدوحيه وهو وإن بدا أنه يتحدث بالإطلاق، ولكن إنعام النظر في البيت يوضح أنه يقدّم موازنة خفية بين سلوك سيف الدولة معه وسلوكه هو مع سيف الدولة، فقد استمر سيف الدولة في بذل العطاء له، ولكنه غيَّر من حفاوته به، فصار يلقاه بالتقطيب والعبوس، فما كان من المتنبي إلاّ أن يردّ على ذلك بالتبسم والترك.

يُلاحظ أن الشاعر كرّر في هذا البيت والبيت السابق لفظ (المجازاة) بما يدل على حضور هذا المعنى في ذهنه، بعد سوء مجازاة سيف الدولة له، على كثرة عطاياه له، ذلك أنه يريد التبجيل والتكريم لا العطاء فقط، مهما كان هذا العطاء كبيرًا، يؤكِّده قوله (بذل) الذي يُشير إلى وفرة العطاء وابتذاله بين يديه، وكي يؤكد أن هذا هو قانونه في الحياة ومع الناس جميعًا وليس ممدوحيه فقط قال (الإنسان) التي أراد بها التعميم وهي تُشير إلى الجنس.

وفي قوله (جود عابس) أضاف المفعول به إلى ما يمكن أن يكون حالاً لو قال (الجودَ عابسًا) وكأنه أراد بهذا أن يكون هذا التصرف من الإنسان مستمرًا وأكثر من مرة، حتى صار العبوس صفة له، أما الحال فيُحتمل أن يكون هذا العبوس مؤقَّتًا أو مرة واحدة لسبب ما، وكأنه يُشير من طرف خفي إلى أن

سلوك سيف الدولة معه في عبوسه وتقطيبه لم يكن حالاً زائلة وإنما صارت صفة لازمة له كلما قابل المتنبي.

وإذا كان المتنبي قد نكّر (عابس) ليشير إلى استنكاره لهذا العابس، وعدم احتفاله بجوده حتى إنه وضعه في آخر عبارته، فإنه عرّف (التارك المتبسم) لأنه أراد به نفسه... وإذا كان قدّم البذل على العبوس في صدر البيت، فإنه قدّم كذلك الترك على الابتسام في عجزه ليؤكِّد أن المجازاة كالفعل، وجاء الجواب كالشرط.

وَأَهْوَى من الفتيانِ كلَّ سَمَيْذَعٍ نَجيبٍ كصدرِ السَّمهري المقَوَّمِ
خَطَتْ تحتَهُ العيسُ الفلاةَ وخالطَتْ بهِ الخيلُ كبَّاتِ الخميسِ العَرَمْرَمِ
وَلا عفةٌ في سيفِهِ وسنانِهِ ولكنَّها في الكفِّ والفرجِ والفمِ

المتنبي، شاعر الفروسية المتغني بأمجاد الفرسان وبطولاتهم، يلخِّص في هذه الأبيات الثلاثة، المواصفات التي يعشقها في الفارس الفتي، ولذا قال (أهوى) معبِّرًا عن عشقه وولعه بهذه الصفات ومن يحملها، وكأنه يُؤكِّد من طرف خفي ما قاله عن (حبيبه المعمم) فحبيبه فارس يجسِّد كل معاني الفروسية وصفاتها، وقد اختار لفظ (الفتيان) لما تعنيه هذه اللفظة من قيم الرجولة وصفات الفرسان، ثم اختص من هؤلاء الفتيان (كل سميذع نجيب)، فخليله مختار من الصفوة المختارة. وإذا كانت لفظة (سميذع) تعني «السيد الموطأ الأكناف»[٢٥]، فإن الفتوة كما يفهمها المتنبي أو يريدها في الفتى: أن يكون سيدًا كريمًا متواضعًا قريبًا من خِلاّنه وأصدقائه يبذل لهم من جوده وجاهه.

(25) الكامل: (١/ ٤).

يبدو لنا أبو الطيب وكأنه يبسط أمام كافور الصفات التي يجب أن يكون عليها حتى يحظى بصداقته وودّه، ولعل هذا ما دعاه إلى تشبيه فتاه (السميذع النجيب) بصدر السمهري المقوّم، فكأنه يُشير من طرف خفي إلى ما يريده من كافور، وهو أن يكون رمحه المصوَّب إلى أعدائه... وإذا ما سألنا: لماذا خصَّ المتنبي الصدر فقال (صدر السمهري)؟ فإن العودة إلى كتب اللغة قد توضِّح ما أراده، فقد جاء في أساس البلاغة «سهم مصدَّر: غليظ الصدر»[٢٦]، فكأنه يريد القول لكافور: إن عليه أن يكون واسع الصدر قويَّه حتى يكون قادرًا على ردِّ الكائدين والحاسدين، لا أن يكون ضيّق الصدر، يتأثَّر بأقوال الوشاة والأعداء.

وكي يؤكِّد المتنبي أن هذا الفارس قد تربّى على قيم الرجولة التي تمنحها الصحراء لأبنائها، قال: (خطت تحته العيسُ الفلاةَ) مستعملاً الفعل (خطت) وهو وإن كان معناه جابت وقطعت، فإنه يُوحي بكثرة الخطو، حتى إنها رسمت خطًا لمسيرها في الفلاة، كما ألمح إلى أن هذا الفارس يجوب الصحراء باختياره تعبيرًا عن فتوته فقال (تحته) أي إن هذه العيس بإمرة راكبها، يسير بها حيث يشاء، وهو ما دعاه إلى تقديم الظرف (تحته) على الفاعل والمفعول به. وخصَّ (العيس) لكونها من كرائم الإبل، وكأنه يريد الإشارة إلى أن هذا الفتى من كرام القوم، وساداتهم، يؤكِّد ذلك قوله (وخالطت به الخيل) فهو لا يخوض الحرب فردًا إنما هو قائد يقتحم بفرسانه وخيله جيوش الأعداء. ويعبّر الشاعر عن شجاعة فارسه، وإراقته دماء أعدائه تعبيرًا كنائيًا متميِّزًا بطريقة تأكيد المدح بما يشبه الذم، حيث يقول (ولا عفة في سيفه وسنانه) وواضح أن المتنبي اختار العفة لارتباطها

(26) أساس البلاغة: مادة صدر.

بجريان الدماء كالضرب بالسيف والطعن بالرمح.

وتأكيدًا لانتفاء مثل هذه العفة عن سيف فتاه ورمحه جاء بها نكرة بعد لا النافية للجنس مبالغة في انتفائها.

ويُلاحظ حرص المتنبي على تنزيه فارسه، إذ أسند عدم العفة إلى السيف والرمح لا إلى صاحبهما، حتى لا يتبادر إلى الذهن أنه ليس عفيفًا، ولكنه حين أراد إثباتها له في عجز البيت قال: (ولكنها في الكف والفرج والفم) وهي أعضاء جسمه. كما أنه رتَّب هذه الأعضاء بحسب أهمية العفة في كل عضو منها، فعفة اليد أي الامتناع عن (السرقة) أولاً ثم عفة الفرج أي الامتناع عن (الزنى) ثم عفة اللسان أي الامتناع عن (الكلام السيئ).

وَمَا كُلُّ هاوٍ للجميلِ بفاعِلٍ وَلاَ كلُّ فعّالٍ لَهُ بمتمِّمِ

يقول المتنبي: ليس كل من تعلّق بالجميل وأُغرم به قادرًا على القيام به. وتعبيرًا عن شدة حبه للجميل قال (هاو) فاستعمل الهوى ولم يستعمل الألفاظ المرادفة: الحب، الرغبة، الود... إلخ، كما أنه استعملها بصيغة اسم الفاعل تعبيرًا عن شدة ولعه بالجميل حتى صار هاويًا له، يُعرف به.

وكما أكد هواه للجميل وولعه به، أكَّد كذلك عدم قيامه به فقال (بفاعل)، فهذه الباء الزائدة زيادة مقيسة تُفيد التوكيد، فأراد أنه على شدة حبه للجميل، لا يفعله أبدًا... ثم عاد وكأنه يستدرك ما قاله كي يستثني حتى كثير الفعل للخير (فعّال) من أن يكون متمِّمًا له... فكما أن العبرة ليست بحب الجميل فإنها ليست بفعله ناقصًا «كأنه يعرّض بسيف الدولة»[٢٧] ، ذلك أنه أتبعه منًّا وأذًى فكان كمن يهوى الجميل ولا يفعله.

(27) شرح أبي العلاء: (٤/ ٧٩).

حذف الشاعر في صدر البيت متعلق اسم الفاعل (فاعل) وهو (له)، في حين أثبته في العجز بقوله (فعّال له)، ذلك أنه إذ نفى حصول الفعل في صدر البيت حذف متعلقه، ولكن حين أثبته في عجزه، أثبت كذلك متعلقه.

إن حرص المتنبي على مساواة من يقوم بالجميل ولكنه لا يتممه، بمن يهوى الجميل ولكن لا يفعله، هذا مثل ذاك، وهو تعريض شديد بسيف الدولة، دفعه إلى خلق هذا التوازي التركيبي والمعنوي بين الشطرين.. وما كل... ولا كل، هاو للجميل... فعّال له، بفاعل... بمتمم»، وكما بالغ في قوله (هاو) بالغ في قوله (فعّال)، وكما أكد بقوله (بفاعل) أكَّد بقوله (بمتمم) وكما حذف متعلق (بفاعل) حذف كذلك متعلق (بمتمم).

فِدًى لأبي المِسْكِ الكرامُ فإنَّها سَوَابقُ خيلٍ يَهْتدينَ بأدْهَمِ

يبدأ أبو الطيب المتنبي مدحه المباشر لكافور، بعد أن أشار في مفتتح قصيدته إلى أَمَّهِ إياه، وعدّه خير ميمَّم... ولكن أتراه كان صادقًا في دعواه؟ وهل كان مدحه مدحًا خالصًا، أَم جعله كلامًا موجَّهًا، يحتمل المدح وغير ذلك؟ هذا ما سنحاول أن نتلمسه في أبيات القصيدة الباقية.

كان المتنبي قد وصف كافورًا بأنه خير ميمَّم ثم عاد ليجعل الكرام فداءً له، وهم وإن كانوا سوابق في الكرم، إلاّ أنه إمامهم وهم يهتدون به. وقد صاغ عبارته بما يؤكِّد هذا التقدم الذي يريده، إذ قدّم الخبر (فدى) على المبتدأ (الكرام) فهو يريد تخصيصه بهذا النوع من الفداء، كما قدّم متعلق الخبر (لأبي المسك) وهي كنية كافور، فكأنه أراد تأكيد تقدُّمه عليهم فقدّمه إذ قدّم كنيته عليهم.

وإذا كان المتنبي قد حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه فقال (الكرام) بما يُوحي أنه يريد (السادة) أو (الممدوحين) فإن هذا الحذف جعل كلامه موجهًا، أي إنه يحتمل التوجيه إلى مبتدأ آخر يفسّره قوله (سوابق الخيل)، فما الذي يمنع أن المتنبي أراد (الخيل) التي شاع بين العرب وصفها بأنها (كرام)؟ يؤكِّد ذلك بل يقوّيه قوله بعدها (فإنها) وكان بإمكانه أن يقول (فإنهم)[٢٨]، فتكون أنسب في عودتها على الممدوحين أو السادة... ثم يأتي التشبيه البليغ المسبوق بأداة التوكيد (إن) ليوضِّح الكرام بأنها (سوابق خيل يهتدين بأدهم، فإن حقيقة مدحه له لا يتعدى كونه سابقًا للخيل الكريمة إذ يسير أمامها متميِّزًا منها لا لشيء إلاَّ لكونه (أدهم) أي أسود اللون.

لقد ابتدأ المتنبي من هنا، أولى خطواته في هجاء كافور هجاء مبطَّنًا فهو لم يَعْدُ أَنْ جعله دليلاً للخيل يسير أمامها وهي تهتدي بسواد لونه الذي يميِّزه منها.. يؤكِّد ذلك قوله (يهتدين) ولم يقل (يقتدين) فهو (إشارة) أو (علامة) مميَّزة وُضعت أمامها كي تسير خلفها، بل إن لفظ (الاهتداء) يُوحي بأن هذه الخيل قد ضلَّت طريقها فهي جماعة من الخيل تائهة يقودها فرس أسود... بل إننا نستطيع أن نوجِّه البيت بقراءة أخرى هي أن المتنبي كان خبيثًا في مدحه هذا لكافور، ذلك أنه جعل كل الكرام التي تقتدي بكافور فداء له، فهو يدعو عليها لأنها اقتدت بمثله.

أَغَرَّ بِمَجْدٍ قَدْ شَخَصْنَ وراءَهُ إلى خُلُقٍ رَحْبٍ وَخَلْقٍ مُطَهَّمِ

يصرّ المتنبي على قصده ومعناه، ويعاود وصف كافور بأنه (أغرّ)، وهي من صفات الخيل، ويؤكِّد أنه لم يرد بلفظ (الكرام) السادة أو الممدوحين وإنما

(28) يُنظر شرح أبي العلاء: (٤/ ٧٩) هـ٣.

الخيل، حين يقول – شخصْن) ليختم البيت بصفة أخرى من صفات الخيل وهي (مطهّم).

إن قراءة البيت بتأنٍّ، توضِّح روح الصنعة التي تطغى عليه، إذ يصرّح المتنبي بالمعاني التي في نفسه، ثم يحاول التمويه عليها بالاستعارات أو الجناسات المكرورة. فإذ وصف كافورًا بأنه (أغر)، حاول أن يستر استهزاءه به وبلونه الأسود، بأن جعل هذه الغرة معنوية وهي (غرة المجد). وإذ وصف هذه الخيل بأنها (قد شخصن وراءه) وأراد – في الظاهر – أنهن يرتفعن بنظرهن، فإن معاجم اللغة تعطي للشخوص معنى آخر هو «السير من بلد إلى بلد»[٢٩]، وهو ما يجعل كلامه يحتمل التوجيه إلى معنى آخر، وهو أن هذه الخيول – التي لا نستبعد أنه أراد بها أتباعه من العبيد – تنتقل من بلد إلى بلد، من بلاد النوبة إلى مصر، يتقدمها كافور طمعًا في تحسين خَلْقها وأَخْلاقها.

وفي قوله (إلى خُلُق رحب وخَلْقٍ مطهَّم) ما يقوّي هذا التوجيه، ففضلاً عن هذا الجناس المستهلك (خُلُق وخَلْق)، إن وصف الخلق بأنه رحب تعبير غير مألوف، وقد يحتمل الذم لأن وصفه بالرحب يعني القادر على تحمُّل أي شيء، حتى الإهانات، وهذا هو شأن العبيد وكذلك قوله (خَلْق مطهَّم) فإن المطهَّم تعني فيما تعنيه: «المنتفخ الوجه... وقيل المطهم السمين الفاحش»[٣٠]، فلا نستبعد أنه قصد الاستهزاء بهؤلاء العبيد وهم يفرطون في طعامهم بعد أن صار إمامهم سيد مصر، وراحوا يقلِّدونه في كل شيء، فبدنوا مثله.

إِذَا مَنَعَت مِنْكَ السِّياسَةُ نَفْسَها فَقِفْ وَقْفَةً قُدّامَه تُتَعَلَّمِ

(29) العين: (٤/ ١٦٥).

(30) لسان العرب: مادة (طهم).

أشعر أن المتنبي في هذا البيت يخاطب نفسه، إذ يحاول أن يُخفف عنها، ويُهدّئ من روعها، وهو يرى شخصًا مثل كافور سيدًا على مصر، ويبقى هو مجرد شاعر يقف بين يديه مادحًا.

إن حقد المتنبي على السياسة وغضبه منها، يتجلَّيان في هذه الصورة الغريبة التي رسمها للسياسة، ممثَّلة بامرأة تمنع نفسها عن أناس، فيما تهب نفسها لآخرين... إنها لا تعدو أن تكون عاهرًا تبيع نفسها في سوق النخاسة، وإذا ما أردت أن تتبيَّن هذه الضِعة وهذه الخِسّة، فما عليك إلاّ أن تقف وقفة واحدة أمام كافور لتعلم صدق ما يقوله.

وهكذا جاء الشطر الثاني من البيت ثقيلاً بتلك القافات المتتابعة، معبِّرة عما ينوء به صدر المتنبي من غيظ وألم من مقاديره التي قادته إلى أن يكون مادحًا لكافور، ولو أنصفت لكان هو السيد ولا يعدو أن يكون كافور عبدًا من عبيده... هذه المعاني والأفكار تولَّدت في نفس المتنبي وهو يقف أمام كافور، وهكذا يدعونا إلى أن نقف معه هذه الوقفة، حتى نتعلَّم ونعرف حقيقة السياسة... ولذا قال (تتعلم). بحذف المفعول به، ولم يصرّح بما نتعلمه من وقوفنا وقفة واحدة أمام كافور، يؤكِّد ذلك قوله (قدّامه) ولم يقل (بين يديه) أو (في حضرته)، لأن الأولى هي وقفة التعلم، والثانية وقفة الإكبار، ولكن (قدّامه) هي وقفة المتطلِّع المتفحِّص. إن الوقفة الواحدة لا يمكن أن تُفيد سوى النظر والتطلع، وهذا ما تتعلمه من كافور حين ترى سواد لونه وانتفاخ بطنه وغلظ شفتيه وتشقق رجليه، وزمزمته بكلام لا يفقه معناه إلاّ أولئك العبيد أشباهه الذين أحاطوا به، ولا نستبعد أن يكون المتنبي أراد أن يستحضر في أذهاننا هذه

الجَلَبة التي يستشعرها في بلاط كافور وهو يعج بهؤلاء الزنوج يزمزمون بكلام لا يفهم معناه... فجاء بهذه القافات المتتابعة.

يَضيْقُ عَلَى مَنْ راءَهُ العُذرُ أَنْ يُرى ضَعيْفَ المساعي أو قليلَ التكرُّمِ

يستكمل المتنبي مديحه المبطَّن بالهجاء لكافور، وهو يراه عديم المواهب وليس عنده ما يؤهِّله للولاية والزعامة، ويؤكِّد ما قاله في البيت السابق من أن نظرة واحدة إليه تعلّمك ما السياسة؟ وكيف تعمل؟ فها هو يقول إن من يرى كافورًا سيدرك أن الوصول إلى السلطة صار أمرًا ميسورًا ومبذولاً لمن يبذل القليل من الجهد فلا عذر له في عدم السعي إليها.

وكي يؤكِّد انقلاب الموازين التي تقعد بالقادرين وأصحاب المواهب من أمثاله، وترفع العجزة والعبيد من أمثال كافور، نجده يستعمل الفعل (راءه) وهو مقلوب الفعل (رآه)[٣١]،... فهذا القلب تعبير عن انقلاب القيم والموازين في نظر من يرى كافورًا متربعًا على عرش مصر. وقد تنبَّه ابن جني على ما وراء هذا البيت من هجاء حين حمله على معنى «لم أرَ مثله في خسته ولؤم أصله إذا كان له مسعاة وتكرم فلا عذر لأحد بعده في تركها»[٣٢].

ولعل ضيق المتنبي مما يراه وهو ينظر إلى كافور، دفعه إلى افتتاح البيت بالفعل (يضيق)، فهو يتميَّز غيظًا وغضبًا ويضيق به المكان وكل شيء، بعد أن سقطت الولاية هذا السقوط وابتذلت هذا الابتذال، حتى لم يعد الوصول إليها يستلزم سوى القليل من السعي والقليل من اصطناع الكرم، وبذا قال (التكرّم)

(31) شرح البرقوقي (٤/ ٢٦٧).

(32) م. ن.

للإيحاء بتكلف الكرم، فكافور ليس كريمًا طبعًا، إنما هو يتكلفه ويتصنعه عسى أن يلحق بالكرام.

وإذا ما تنبهنا على أن (العذر) جمع العَذِرة[٣٣]، وهو ما تطرحه الدابة من فضلات، يمكن أن نقرأ البيت قراءة أخرى، وهي أن من يرى كافورًا وما وصل إليه سوف يحتبس عليه جوفه حتى تضيق عليه العذرة على صغرها.

وَمَنْ مِثْلُ كافور إذا الخَيْلُ أَحْجَمَتْ وَكانَ قليلاً مَنْ يقولُ لها اقدُمي

شديدُ ثباتِ الطّرْف والنقعُ واصلٌ إلى لَهَواتِ الفارسِ المتلثِّمِ

قد يبدو ظاهر البيتين أن المتنبي يمدح كافورًا بالإقدام والشجاعة، إذ يقول: مَنْ مثل كافور إذا أحجمت الخيل عن التقدم، وفزع الناس حتى قلَّ من يتقدَّم بها، وإذا تعالى الغبار حتى وصل لهوات الفارس المتلثم فإن عينه لا تطرف.

ولكن إنعام النظر في البيتين والتنبه على الألفاظ التي اختارها المتنبي وطريقة صوغه لها ستجلّي حقيقة ما أراده المتنبي وحقيقة نظرته إلى كافور، فهو أدنى إلى الهُزء به من مدحه، ففي البيت الأول ليس هناك أية إشارة إلى معركة أو حرب ولا ذكر للفرسان أو القتال، وإنما هناك خيول محجمة – دون التصريح بسبب إحجامها أو الشيء الذي أحجمت عنه – وكافور وحده من يأمرها بالتقدم، إذ قلَّ من يقول لها ذلك... إن كل ما فعله المتنبي تصوير كافور بصورة سائس الخيل الذي يحثها على المسير إذا ما امتنعت، فلم يسند له أيَّ فعل سوى طلبه من الخيل التقدم، وخصَّه بهذه المهمة لكثرة مزاولته إياها حتى صار متمرسًا فيها.

(33) مختار الصحاح (٤٢٠).

وكذا في البيت الثاني، ليس هناك ذكر لمعركة أو قتال إذ وصفه بثبات الطرف، فلم يصفه بثبات القلب أو ثبات الرِّجْل، كما أن هذه الكناية لم تَشِعْ عند العرب دليلاً على الشجاعة، بل إن إيحاءها بشدة الفزع والذهول أقوى من إيحائها بالشجاعة(٣٤)، وثبات العين في حال اشتداد الغبار وكثرته ليس دليلاً على الشجاعة قدر دلالته على الاعتياد والتمرّس. إننا لا نستبعد أن هناك معنى آخر قصده المتنبي وحاول إخفاءه بمهارة، هو أن كافورًا رجل ممتهن بالأعمال الشاقة وفي الظروف الصعبة، فحين يتعالى الغبار – دون توضيح لسبب تعاليه – ويصل إلى لهوات من امتطى الفرس وتلثّم، فإن كافورًا العبد السائر على قدميه يحثّ الخيل على التقدُّم، لا تطرف له عين، فهذه العيون التي أدمنت الاحمرار لم تعد تطرف للغبار الذي يصيبها.

وحين نقف على ألفاظ البيت وبنيته يتوضَّح لنا صدق ما ذهبنا إليه فهو أولاً حذف المبتدأ (هو) العائد على كافور في قوله (شديد ثبات الطرف) وفي ذلك تغييب واضح لشخصه، كما أن قوله «والنقع واصل» بصيغة اسم الفاعل، فضلاً عن إشارته إلى ثبات هذا الحال وديمومته بما يدل على الاعتياد والمعايشة، فإن فيه إيحاءً بتصاعد الغبار بفعل ذاتي لا بفعل الفرسان أو اشتداد المعركة، إنما هو متصاعد بحكم الظروف الجوية أو ظروف البيئة... ثم إن لفظة (فارس) لا تعني ضرورة فارس المعركة، إنما هو وصف لكل من امتطى فرسًا تمييزًا له من سواه... وقد استطاع المتنبي بمهارة لغوية فائقة ألاّ يسند أي فعل

(34) قال تعالى في بيان حال الظالمين يوم القيامة: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَار، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾[إبراهيم: الآية٤٢– ٤٣].

إلى كافور في هذين البيتين، وهو ما التزم به في كل أبيات المدح في القصيدة، وفي ذلك دلالة واضحة على نظرة المتنبي إلى كافور التي تقوم على استصغاره واحتقار همته وقدرته على الفعل.

وإذا كان هناك من يقرأ البيت الثاني قراءة أخرى، وهو يفسِّر لفظة (الطَّرْف) على أنها الفرس[٣٥]، فإنني أجد في هذه القراءة تصريحًا بالهجاء، لا سيما إذا ما ربطنا معنى هذا البيت بالبيت الذي تقدَّمه، فإذ يأمر كافور الخيل المحجمة بالتقدُّم فإنه يظل ثابتًا بفرسه في مكانه، لا يقوى على التقدم، وهو هجاء مقذع لا محالة.

أَبا المِسْكِ أرْجو مِنكَ نَصْرًا على العِدا وآملُ عزًّا يَخْضِبُ البيضَ بالدَّمِ

وَيَوْمًا يغيظُ الحاسدينَ وحالةً أُقيمُ الشقا فيها مقامَ التنعُّمِ

يبدو من ظاهر البيتين أن المتنبي ينتدب كافورًا لمعركة مع أعداء كافور، ويرجوه تحقيق النصر والعز المخضّب بالدم، بما يغيظ الحاسدين ويُحيل نعيمهم شقاءً.

ولكن واقع الحال، إنه ينتدبه لمعركته هو – المتنبي – مع أعدائه الذين ناصبوه العداء في بلاط سيف الدولة، ولم يمكّنوه من تحقيق حلمه بالولاية، وبذلك فإن كافورًا إذا ما مكّنه من هذه الولاية، فإنما يحقِّق له نصرًا على أعدائه وعزًا يمكّنه من تخضيب سيوفه من دمائهم، أما حاسدوه فسيقتلهم الغيظ ويستحيل نعيمهم شقاء.

ولعل ألفاظ البيتين ونظمهما يساعداننا فيما ذهبنا إليه، فقد قال المتنبي مخاطبًا كافورًا (أرجو) فهو ابتداء يرجوه، والرجاء فضلاً عن أنه ليس مدعاة

(35) شرح البرقوقي: (٤/ ٢٦٧) هـ ٥.

للمدح، يكشف لنا أن المتنبي يريد من كافور تحقيق أمر بعينه له وهو الولاية، التي بدأ أولى خطواته في التلميح بها، فهي نصره على أعدائه، وهي عزّه الذي سيمكِّنه من دمائهم، وبها يغيظ حاسديه ويتركهم في شقائهم يتقلبون. ثم إنه قال (العدا) ولم يحدِّد هؤلاء الأعداء، ثم قال (نصرًا) بالتنكير، ولم يصرِّح بالكيفية التي يتحقق فيها النصر، وهل هو النصر الذي يتحقق في سُوْحِ القتال؟ وقال (وآمل عزًا يخضب البيض بالدم) بطريق المجاز العقلي، إذ لم يُسند تخضيب البيض بالدم لكافور بل للعز وهو سبب، ولا ندري عزّ مَنْ أراد بقوله (عزًّا) بالتنكير، هل هو عز كافور أم عزّه هو؟ وكذا فعل في البيت الثاني حيث قال (ويومًا يغيظ الحاسدين) فلجأ إلى المجاز العقلي ثانية بإسناد الفعل (يغيظ) إلى (اليوم) وهو ظرف زمان، وهكذا جرّد كافورًا من أي فعل حتى إنه قال بعدها (أقيم الشقا فيها مقام التنعم) فأسند الفعل إلى نفسه فهو الذي سيحيل نعيم الحاسدين إلى شقاء لا كافور. لقد استثمر المتنبي مهارته اللغوية ببراعة فائقة كي يجرِّد كافورًا من كل شيء ويجعله منفّذًا لرغبات المتنبي، فالمتنبي هو الذي يرجو النصر، والعز هو الذي سيخضِّب البيض بالدم، واليوم هو الذي سيغيظ الحاسدين، والمتنبي هو الذي سيقيم الشقا مقام التنعم.

وَلَمْ أَرْجُ إلاّ أَهْلَ ذاكَ وَمَنْ يُرِدْ مَوَاطِرَ مِنْ غيرِ السحائبِ يَظْلِمِ

يأتي هذا البيت تأكيدًا لما استنتجناه من البيتين السابقين، من أن المتنبي يريد من كافور أن ينصره على أعدائه وحاسديه، فها هو يؤكِّد رجاءه ويمدحه بأنه لم يرجُ إلاّ من هو أهل لتحقيق ما يصبو إليه.

ومن يقرأ البيت بإنعام يدرك أن المتنبي حتى في هذا البيت يبدو ظالمًا لكافور، فإنه يقول له: أنا مضطر إلى قصدك لأنك وحدك من يستطيع تحقيق

ما أصبو إليه... فمن يريد المطر لابد أن يلتمسه من السحاب، إنه بذلك يردّ على لائميه، ومن حاول أن يثنيه عن قصده كافورًا، كما سيصرِّح بذلك في أبيات القصيدة القادمة.

إن بناء البيت على التشبيه الضمني، تأكيد لهذا الذي نقوله، فقوله «ولم أرجُ إلاّ أهل ذاك» هو الطرف الأول من التشبيه ويمثِّل المشبه وهذا يكون دائمًا ادعاء أو دعوى، قد تكون صادقة أو كاذبة، أما الطرف الثاني وهو قوله (ومن يرد مواطر من غير السحائب يظلم) فيمثِّل المشبه به، وهذا يكون دائمًا حقيقة راسخة لا يمكن إنكارها، وتساق دليلاً أو برهانًا على إمكان ما جاء في المشبه، من ادعاء... هكذا يبدو لنا المتنبي وكأنه يسوّغ للائميه سبب قصده كافورًا... وفي استعماله لفظ (يظلم) تأكيد لما قلناه، فهؤلاء اللائمون ظالمون له، لأنهم لم يفهموا حقيقة ما يريده ولماذا قصد كافورا، يقوّي ذلك حذفه مفعول (يظلم) فلم يحدِّد لنا من هو ذلك المظلوم.

وإذا ما وقفنا عند الألفاظ وإيحاءاتها، نجد أن استعمال المتنبي للفظ (مواطر) يؤكِّد ما نقوله، ذلك لأنه لم يقل (المياه) لأن هذه يمكن أن تُلتمس من مصادر أخرى غير السحاب، أما من يريد المطر، فليس أمامه إلاّ السحاب. ثم إن لفظة (مواطر) هي جمع لاسم الفاعل، وهذا يعني أن المتنبي لم ينظر إلى كافور على أنه مطر وإنما هو ماطر، أي هو من يستطيع المطر الذي يبغيه المتنبي، فهو لا يرجوه إلاّ لأن المطر عنده، ثم ألا يمكن أن يكون المتنبي قد تقصّد أن يشبّه كافورًا بالسحب المواطر، إشارة إلى سواد لونه، ذلك أن السحابة كلما ازدادت سوادًا، ازداد مطرها، فهو يرى أن سواد لون كافور،

وضِعَة أصله سيكونان حافزًا لكافور، حتى يحقِّق للمتنبي ما يطمح إليه، كي يدلِّل على كرمه، وحسن شمائله، وأريحته.

ويُلاحظ أن المتنبي حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه وذلك في قوله (ولم أرجُ إلاّ أهل ذاك) إذ أراد (رجلاً) أو (شخصًا) أهل ذلك وأراد به كافورًا، ولاشك في أن حذفه وإبقاء صفته فقط يقوّي ما ذهبنا إليه من أنه مضطر إلى قصد كافور لأنه من يستطيع أن يحقِّق له ما يرجوه وهو ما تأكَّد بأسلوب القصر الذي استعمله في عبارته السابقة.

فَلَوْ لَمْ تَكُنْ في مصرَ ما سِرْتُ نحوَهَا بِقلبِ المشُوقِ المستَهامِ المتيَّمِ
ولا نبِحَتْ خيلي كلابُ قبائلٍ كأنّ بها في اللّيلِ حَمْلاتِ ديلَمِ
ولا اتّبَعَتْ آثارَنَا عينُ قائِفٍ فلمْ تَرَ إلاّ حافِرًا فوقَ مَنْسَمِ
وَسَّمْنَا بها البيداءَ حتّى تغَمَّرتْ منَ النيلِ واستَذْرَتْ بظِلّ المقَطَّمِ

ليس في هذه الأبيات مدح لكافور، إنما هي تصوير لقصد المتنبي إياه، وما عاناه، وهو يقطع الصحراء في مسيره إليه، واصفًا موقف القبائل التي مرّ بها من هذا المسير وعدم رضاهم عنه.

إن المتنبي الذي ضنَّ على كافور بأن يسند إليه أي فعل على امتداد الأبيات التي يُفترض فيها أن تكون في مدحه، أسند إليه فعلاً ناقصًا (تكن) الذي لا يعبر عن شيء سوى كينونته في مصر، ولا فضل له في ذلك.

وحتى حين أراد وصف اشتياقه للُقيا كافور، لم يصف حال قلبه مباشرة، أو أن يسند الشوق إلى شخصه، بقوله (بقلب المشوق المستهام المتيم)، فبدا وكأنه يستعير قلبًا غير قلبه، أو أن هذا القلب الذي يسير به نحو كافور ليس قلبه الحقيقي... كما يُلاحظ أن الصيغ التي استعملها لوصف صاحب هذا

القلب جاءت بصيغة اسم المفعول (المشوق المستهام المتيم) وكأنه يريد أن يُوحي بذلك أنه مضطر إلى هذه الوفادة، فهو ليس فاعلاً بل مفعول... إنها قِوى أقوى منه تدفعه إلى ذلك، شأن المشوق المستهام المتيم، فهؤلاء جميعًا مسلوبو الإرادة وما عادوا يملكون من أمرهم شيئًا.

وفي قوله «ولا نبحت خيلي كلاب قبائل» صورة كنائية تفضح حقيقة شعوره تجاه مسيره نحو كافور، فقد عبّر عن عدم رضاه بهذه الكلاب التي جعلها تنبح خيله بشراسة وكأنها أعداء جاؤوا للإغارة عليها ليلاً... وفي قوله (قبائل) إشارة واضحة إلى كثرة لائميه على قصده ومسيره. وإذا صدقت رواية ابن جني من أن بعضهم سأل أبا الطيب «فقال أتريد بالديلم الأعداء أم هذا الجيل من العجم؟ فقال: من العجم»[٣٦]، فلا نستبعد أن المتنبي أراد الإيحاء بأن هذه القبائل التي مرَّ بها والتي لم تكن راغبة بمسيره إلى كافور، لم يفهموا مراده. ومع أنه حاول أن يفسِّر لهم ذلك، لم يدركوا ما يسعى إليه حتى بدا لهم وكأنه أعجمي لا يفهمون ما يقول.

وكي يؤكِّد إصرار هذه القبائل على ثنيه عن عزمه على المسير نحو كافور، جعل هذه القبائل تُرسل خلفه من يقفو أثره محاولة منهم في إقناعه بالعدول عن ذلك. ولكنه أسرع في مسيره حتى يفوتهم إدراكه... ثم إنه كان ماهرًا في خلط الأمر عليهم فلم يدركوا ركبه إذا اختلطت آثار الحوافر بآثار المناسم، وتعبيرًا عن ضياع هذه الآثار نجده يحذف لفظ (أثر) في قوله (فلم تر إلاّ حافرًا فوق منسم) أي أثر حافر فوق أثر منسم.

(36) شرح البرقوقي: (٤/ ٢٦٩).

وإذا كان أراد بقوله (وسمنا بها البيداء) أنه وسم الصحراء بآثار خيله وركائبه، فإننا لا نستبعد أنه أراد أنه في مسيره نحو كافور، قد ترك أثرًا في نفوس أهل الصحراء الذين مرَّ بهم، وهم يستغربون قصده كافورًا، وكيف أنهم تبعوا آثاره، كي يلحقوا به ويمنعوه، ولكنه أسرع حتى (تغمّر من النيل واستذرى بظل المقطم) وهو في هذا يعبِّر عن هربه من لوم العرب إياه، فاستعجل دخول مصر حتى يدخل في غمار أهل النيل ويستذري بالمقطم منهم... وإذا ما أنعمنا النظر في قوله (تغمّرتْ... واستذرتْ) فإن هذين الفعلين يعبران عن إحساس المتنبي المبكِّر بأن إقامته في مصر لن تطول فركائبه (تغمَّرتْ) أي شربت قليلاً من الغمر – وهو القدح الصغير – (واستذرت) أي نزلت للراحة في ظل المقطم، وكأنها عازمة على مواصلة رحلتها.

وَأَبْلَخَ يعْصِي باختصاصي مُشيْرَهُ عَصَيْتُ بقَصْديهِ مُشِيري وَلُوَّمي
فساقَ إليَّ العُرْفَ غيرَ مُكدَّرٍ وَسُقْتُ إليهِ الشكرَ غيرَ مُجَمْجَمِ

يقول الشاعر مادحًا: إن ركائبه قد استذرت بملك عظيم يعصي من أشار عليه بتركي، كما عصيت أنا من أشار عليَّ بترك المسير إليه، أو من لامني على ذلك، وكما أسدى لي معروفًا بذلك، شكرته شُكرًا صريحًا.

وهذه هي قراءة من يوجِّه الأبيات إلى المدح فيعطف (أبلخَ) على (المقطَّم) أي إن ركائبه كما استذرت بالمقطم استذرت بهذا العظيم. ولكن ألا يمكن عدّ هذه الواو التي افتتح بها البيت – واو (رب) فينقطع الكلام عما سبقه ويمكن قراءة البيت قراءة ثانية، إذ فضلاً عن بشاعة هذا الوصف (أبلخ) وكراهة صوته، فإن معناه «العظيم في نفسه، الجريء على ما أتى من الفجور»[٣٧]، وهو وصف

(37) العين: (٤/ ٢٧١).

مطابق تمام المطابقة لما قام به كافور من خيانة سيده الإخشيد واستيلائه على ملك مصر، وهو المعنى الذي كان في نفس المتنبي وعبّر عنه فيما بعد عندما هجا كافورًا في قصيدته المعروفة «عيد»[٣٨]. وإذا كان هناك من يرويها (أبلج)[٣٩]، ومعناها «الجميل» فلا شك في أن سخرية المتنبي من كافور تكون أكثر صراحة ووضوحًا.

إن قراءة هذين البيتين بإنعام توضِّح أن المتنبي حرص فيهما على أن يخلق تعادلاً بين ما قدّمه كافور له، وما قدَّمه هو لكافور، فإذا عصى كافور من أشار عليه بعدم اختصاصه، فعل المتنبي الشيء ذاته، وإذ ساق كافور إليه المعروف غير مكدّر، ساق هو إليه الشكر غير مجمجم، وهو ما تجلَّى في استعماله الأفعال والصيغ نفسها مسندة إلى كافور أو إليه (يعصي... عصيت، فساق إليَّ... وسقت إليه، غير مكدّر، غير مجمجم) ولكننا نجد أن المتنبي قد رجّح كفته في ذلك على كافور، فإذ قال عن كافور إنه (يعصي) قال عن نفسه (عصيتُ) أي إنه أسبق من كافور في معصية من خالفه الرأي، وإذ قال عن كافور إنه عصى (مشيرَه) قال المتنبي عصيت (مشيري ولوّمي) فزاد عليه باللائمين. ثم إن قول المتنبي (فساق إليَّ العرف) تُوحي باستهانة المتنبي بكافور بتصويره إياه وهو يسوق المعروف قاصدًا المتنبي وكأنه هو الممدوح، وكافور بين يديه يقدِّم إليه المعروف.

(38) في قوله:

أكلّما اغتال عبدُ السوء سيدَه أو خانه فله في مصر تمهيدُ

(39) شرح أبي العلاء المعري: (٤/ ٨٣).

بل إننا نشعر أن استعمال المتنبي لفظ (العرف) بدل المعروف مقصود، وكأنه أراد أن يُوحي أن كافورًا بتكريمه المتنبي لم يقم بأكثر مما يقتضيه العرف العربي وهو إكرام الضيف ما دام المتنبي قد نزل ضيفًا عليه، وأن الواجب يقتضي أن لا يكون هذا الإكرام مكدَّرًا. وإذا ما تنبَّهنا على هذه (الفاء) التي افتتح بها البيت نجدها، بدت لنا وكأنها جعلت معروف كافور للمتنبي مجازاة لعصيانه مشيريه ولومه، فبذلك لم يزد كافور على ما يقتضيه العرف في ذلك... وهو ما يؤكِّده إصرار المتنبي على الإشارة إلى كافور بضمير مستتر (فساق).

ويعود المتنبي مرة أخرى لخلق موازاة تركيبية بين شطري البيت معبِّرًا بذلك عن المساواة المعنوية التي خلقها بين ما قدَّمه كافور له وما قدمه هو لكافور، وهكذا قال (فساق إليَّ... وسقتُ إليه) و(العرف... الشكر) و(غير مكدر... غير مجمجم)، إنه مصرٌّ على التعامل مع كافور تعامل الندّ للندّ.

وإذا كان قوله (غير مجمجم) يحتمل الاستهزاء من لغة كافور وأتباعه في عدم وضوحها، فإننا لا نستبعد أنه أراد الاستهزاء منهم بهذا المدح المموَّه الذي يقدمه لكافور، وكما قال ابن جني «هذا النفي يشهد بما ذكرته من قلب المدح إلى الهجاء»[٤٠].

قَدْ اختَرْتُكَ الأَمْلاكَ فاخترْ لهُمْ بِنَا حَديثًا وقَدْ حكَّمْتُ رَأيَكَ فاحْكمِ
فأحْسَنُ وجهٍ في الورى وجهُ مُحْسِنٍ وأيْمَنُ كَفٍّ فيهمُ كفُّ مُنْعِمِ
وأشْرَفُهُمْ من كان أشرفَ هِمَّةً وأكبرَ إقدامًا على كلِّ مُعْظمِ

(40) شرح البرقوقي: (٤/ ٢٧٠).

هذه الأبيات الثلاثة هي أدنى إلى الهجاء منها إلى المدح، ذلك أن المتنبي يذكّر فيها كافورًا. بأنه اختاره من بين الملوك وأن هؤلاء سيرقبون ما يكون منه تجاه المتنبي فيكون حديثًا لهم، سواء أكان مدحًا أم ذمًا، وقد حكَّمه في اختياره الأنسب منهما... وبذلك يضع كافورًا في زاوية ضيقة، لا يستطيع الإفلات منها، وقد حمّله من البدء، مسؤولية إخفاق علاقتهما. بل إنه راح يرسم له السبيل لتجاوز سواد لونه، وتشقُّق كفيه، ووضاعة أصله.

وأول ما يستوقفنا في البيت الأول منها، حذف (من) في قوله (قد اخترتك الأملاك) أي من الأملاك، ثم هذا الجمع الغريب، غير الشائع للفظ (مَلِك) فقد ألفنا جمعها على (ملوك)، أتراه أراد أن يلمّح إلى غرابة هذا النوع من الملوك وعدم ألفتنا إياه، فاختار هذا الجمع النادر، أم أنه أراد بقوله (اخترتك الأملاك) أنه اختاره من أجل الأملاك، أي أن يملكه ويوليه، كي يصبح هذا التمليك وهذه التولية، حديث الملوك الآخرين؟

يُلاحظ على بنية البيت إصرار المتنبي على التعامل مع كافور بنديَّة، فها هو يخاطبه بقوله: (اخترتك... فاختر) و– حكّمتُ رأيك فاحكم)، بل غنه ليبدو المبادر بالفعل، أما كافور فمقتدٍ به. ثم إنه أخرّ المفعول في قوله (فاختر لهم بنا حديثًا) وقدّم عليه متعلقّين (لهم) و(بنا)، وكأنه يُشير إلى أنه غير معنيّ بهذا الحديث، مادامت تبعته تقع على كافور وليس عليه، لأنه هو الذي سيختار. كما يُلاحظ في قوله (فاختر لهم) أن الاختيار سيكون للملوك، ولابد لهذا الحديث من أن يكون متناسبًا مع رفعة هذه المجالس، أي أن يكون الأمر عظيمًا يستحق أن يكون حديث بلاطاتهم... وهكذا قدّم (بنا) أيضًا على (حديثًا) فهم معنيون بمن يدور عليهم الحديث لا بالحديث ذاته.

ولا يزال المتنبي على إصراره على التقليل من شأن كافور، فها هو يقول له (حكّمتُ رأيك)، ولم يقل له (حكمتُكَ) وكأنه يريد أن يفصل بين كافور (الشخص) وكافور (الرأي)، فهو حين ينظر إليه لا يجد في شخصه ما يدفعه إلى الثقة به، فلا بأس أن يعوّل على رأيه، إذ قد يخالف هذا مظهره... وهو ما يؤكّده البيتان الآخران، فهو يقول له بعبارة صريحة: لابأس أن يكون وجهك أسود، لأن العبرة بما يصدر عنه من إحسان، فتراه الناس بذلك أحسن الوجوه، ولابأس أن تكون كفُّك خشنة، قد تشققت بكثرة الأعمال الشاقة، إذ ستصبح أيمن كف إذا ما أنعمت بها على الآخرين، وإذا كنت عبدًا ليس لك من شرف النسب، فأنا أرسم لك طريقًا تُنسي الناس وضاعة أصلك، وهو أن تكون شريف الهمّة، مُقْدِمًا على ما لم يُقدم عليه سواك من الملوك، فتحقق (المعظم) الذي عجز السادة البيض عن تحقيقه. إنه يعبِّر بذلك عمّا يريده من كافور كي يتجاوز مظهره غير اللائق ونسبه غير الشريف، وذلك بالإقدام على (المعظم) الذي يريده منه (الولاية). والمتنبي إذ يستشعر عِظَمَ ما يطلبه من كافور وما يحتاجه من همّة وإقدام، فإنه يستحثه على تحقيق ما يريده، واضعًا يديه على أكثر المواضع إيلامًا عند كافور... سواد لونه وخشونة يديه وضِعَة نسبه... وهي نقاط ضعف كافور التي ستصبح فيما بعد مادة هجاء المتنبي لكافور بعد أن أخلف وعده له.

لِمَنْ تُطْلبُ الدنيا إذا لَمْ تُرِدْ بهَا سرورَ محبٍ أو إساءةَ مُجْرِمِ

لا يزال المتنبي في سعيه لحث كافور على الإقدام على تحقيق ما يصبو إليه، وها هو يبلغ من المهارة اللغوية درجة عالية، إذ يصوغ ما هو خاص في إطار حكمة عامة يستحسنها كل من يسمعها. فيقول في خطاب غير مباشر

لكافور، إنما تطلب السلطة والزعامة لإدخال السرور إلى قلوب المحبين والإساءة إلى قلوب المجرمين، وهكذا جمع المتنبي بذكاء متميز بين ما يرضيه وما يرضي كافورًا، إذ يقول له إنْ كنتَ – في تحقيق ما أصبو إليه – تدخل السرور على قلبي وأنا محب لك، وكذلك كل محبيك، فإنك في الوقت نفسه ستسيء إلى كل المجرمين من أعدائك، لقد زيّن في عينيّ كافور ما يريده منه، حتى جعله غاية كافور من دنياه.

إن افتتاح المتنبي بيته باسم الاستفهام (مَنْ) بدل (لماذا) أو (لِمَ) موافق لما قاله بعد ذلك (محب أو مجرم)، فالصراع الذي يخوضه المتنبي لتحقيق ما يرجوه، إنما هو صراع مع هؤلاء المجرمين الذين يقفون في طريق تحقيق أحلامه. وإذا كان المتنبي قد كنّى عن السلطة أو الزعامة بلفظ (الدنيا)، فإنما يعبِّر بذلك عن نظرته إليها، فهي الدنيا التي يطمح إليها، ويحلم بتحقيقها، وهي وحدها التي ستدخل السرور إلى قلبه وتغيظ أعداءه.

يُلاحظ أن المتنبي قال (سرور محب أو إساءة مجرم) وبذلك وضع (إساءة) بمقابل (سرور)، وكان الطباق يقتضي أن يقول (حزن) وتفسير ذلك أن المتنبي أراد بالمحب نفسه أي المتنبي، وبذلك فإن الولاية هي سرور له، أما المجرم فلعله (ابن خنزابة) وزير كافور الذي يُشير ابن جني إلى أنه عدو المتنبي في مصر وهو الذي كان يُشير على كافور بعدم استقدامه وتقريبه منه، وبذلك فإن تولية كافور للمتنبي إساءة بالغة لهذا (المجرم) بنظر المتنبي لأنه يقف حائلاً دون تحقيق المتنبي ما يطمح إليه.

وَقَدْ وَصَلَ المهْرُ الذي فوقَ فَخْذِهِ مِن اسمِكَ ما في كلِّ عُنْقٍ ومِعْصَمِ
لَكَ الحَيوانُ الراكبُ الخَيْلَ كلُّهُ وإنْ كانَ بالنيِّرانِ غَيْرَ مُوسَّمِ

كان قد بلغ كافورًا أن جرحًا أصاب فرس المتنبي، فأنفذ إليه مهرًا أدهم وها هو يُشير إلى وصول هدية كافور إليه. ولكن هل هناك ما يُشير إلى شكره على هذه الهدية؟ إن إنعام النظر في البيت يجلّي حقيقة هي أن المتنبي لم يُشر حتى إلى كون هذا المهر هو هدية من كافور إليه، فهو يُسند الفعل (وصل) إلى المهر دون الإشارة إلى كيفية وصوله أو سببه. ثم إنه حين أراد الإشارة إلى أنه من كافور، جعل ذلك بطريقة غريبة تدعو إلى الاستهجان أكثر من المدح، إذ أشار إلى أن المهر قد وُسِمَ على فخذه (من اسمك) فأشار إلى كافور بالضمير ولا نستبعد أنه أراد التلميح إلى لؤم كافور وبخله، فهو لا يهدي الهدية إلاّ بعد أن يسمها بوسمه كي تبقى دليلاً على أنها من عطاياه، فيشيع بين الناس أنه كريم.

ولعل في قوله بعد ذلك (ما في كل عنق ومعصم)، وتوجيهه بهذا المعنى، ما يقوّي ما ذهبنا إليه، فكأنه أراد أن يقول: إن كافورًا لم يسم الخيل فقط، وإنما وسم حتى عبيده وجواريه، فالعنق تعبير مجازي عن العبد، والمعصم عن الجارية على سبيل المجاز المرسل بالعلاقة الجزئية، وبذلك سيبقى هؤلاء دليلاً على كرمه إذا ما أهدى أحدًا منهم إلى الآخرين.

وفي البيت الثاني بلغ المتنبي الغاية في السخرية المبطنة من كافور وهو يجعله ملكًا على الحيوانات في قوله (لك الحيوان الراكب الخيل كله)، والأرجح أنه أراد الإشارة إلى أتباعه الذين يمتطون الخيول ويدّعون أنهم فرسان، فهم مجرد حيوانات وعبيد لكافور وإن لم يُوسموا بالنيران، أليس هو القائل في مدح سيف الدولة:

وما تَنْفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القنا إذا لَمْ يكُنْ فوقَ الكرامِ كِرامُ

وهو في تقديمه الخبر (لك) على المبتدأ (الحيوان) إنما أراد تخصيص كافور بهذا اللون من التملك.

وَلَوْ كُنْتُ أدْري كَمْ حياتي قَسَمْتُها وَصيَّرتُ ثُلثيها انتظارَكَ فاعلَمِ
ولكنَّ ما يمضي من العمرِ فائِتٌ فَجُدْ لي بحظِّ البادرِ المتَنَعِّمِ

قد يبدو ظاهر البيتين أنهما في مدح كافور، ولكنهما في حقيقتهما تصوير لما يعنيه كافور للمتنبي، أو بتعبير أدق ما يأمله المتنبي من كافور واستعداده أن يفني ثلثي عمره في انتظار أن يحقق له كافور مطمحه (الولاية)، ولكن مادام العمر قد مرّ، فلم يبق إلاّ أن يبادر كافور بالإسراع في ذلك.

يمكن ملاحظة روح الاستعلاء التي يخاطب بها المتنبي كافورًا، وذلك من خلال فعلي الأمر (فاعلم، فجد) وهو ما نلمسه في أبيات أخرى من القصيدة (فاختر، فاحكم،...) وهكذا فإن قوله في نهاية البيت الأول (فاعلم) تأكيد على كافور أن يعي وعيًا تامًّا ما يرجوه منه، وما يمثِّله للمتنبي هذا الذي يرجوه منه.

وقوله في البيت الثاني (فجد لي بحظ البادر المتنعم) يجلّي حقيقة نظرة المتنبي إلى حاله وحال كافور، إذ يشعر أنه قد توفَّر على كل أسباب الزعامة إلا الحظ، فيما أُعدم كافور كل هذه الأسباب ولم يتوفّر له غير الحظ، فالذي ينقص المتنبي هو (الحظ) الذي يجده عند كافور وافرًا، فلابأس أن يجود له بشيء منه حتى يصل إلى بعض ما وصل إليه كافور.

ولا نشك في أن إضافة لفظ (حظ) إلى (البادر المتنعم) وهو يريد به كافورًا، إشارة لا تخلو من سوء الظن في كافور ذلك أنه محظوظ في المسارعة في اغتنام الفرصة حالما تُتاح له دون الالتفات إلى أي اعتبار آخر.

رَضِيْتُ بما تَرْضَى بهِ لي مَحَبَّةً وَقُدْتُ إليكَ النفسَ قَوْدَ المسَلِّمِ
ومثلُكَ مَنْ كانَ الوسيطَ فؤادُهُ فكَلَّمَهُ عَنِّي وَلَمْ أتكلَّمِ

قد يبدو المتنبي في خاتمة هذه القصيدة في غاية التذلل لكافور، بما لا يتناسب وروح الاستعلاء التي طغت على أبياتها السابقة، ولكن يبدو لي أن استسلام المتنبي هنا لكافور، هو استسلام لقدره الذي ختم نضاله وسعيه بأن يقف مستعطفًا كافور، وهو يراه فرصته الأخيرة وأمله الوحيد في تحقيق ما يطمح إليه، وإذا كانت خاتمة القصيدة هو ما سيبقى منها في ذاكرة من يسمعها، فلابأس في شيء من التذلل يُكره النفسَ عليه، يجري على لسانه أملاً في استرضائه واستعطافه، وليبق ما في النفس تجاه كافور على ما هو عليه، وليس أدل على ذلك من قوله (وقدت إليك النفس قود المسلم) فنفسه لم ترغب بالقدوم إلى كافور، ولكنه أكرهها على ذلك وقادها إليه، كما يقاد الإنسان إلى منيته وقدره المحتوم مؤمنًا ومسلّمًا بأن هذا ما قُسم له.

وهكذا جاءت ألفاظه معبرة عن هذا الاستسلام فهو يقول له (رضيت) بصيغة الماضي (بما ترضى) بصيغة المضارع، فهو قد بادره بالرضا حتى قبل أن يرضى هو، وإذا كان قد سوّغ ذلك بمحبته لكافور، فانظر كيف وضع لفظ (محبة) في آخر عبارته لأنها المعنى الأبعد عن ذهنه، وهو لا يمكن أن يحب كافورًا ولكن هذا هو قدره الذي ظل يصارعه زمنًا، ولا يملك اليوم إلاّ أن يستسلم له... ولذا توجَّه إلى قلب كافور يتوسطه في تحقيق أمله، ولا يخلو بيته الأخير من شيء من روح التعاظم عند المتنبي فكأنه يقول لكافور: إذا لم أستطع أن أتكلم لك عن مزاياي، ولم تستطع أن تعترف أنت بها، فلا أقل من أن تسأل قلبك عنها وتعترف بها فيما بينك وبين قلبك.

المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة، تأليف الإمام الكبير جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢- بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلّق عليها محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

٣- الجنى الداني في حروف المعاني، تأليف حسن بن قاسم المرادي، تحقيق طه محسن، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

٤- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د. حسام سعيد النعيمي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠.

٥- دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو، تعريب صالح القرمادي، تونس – ١٩٦٦م.

٦- دلائل الإعجاز، للإمام اللغوي عبد القاهر الجرجاني، حققه وقدم له د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م. مكتبة سعد الدين – دمشق.

٧- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري «معجز أحمد»، تحقيق د. عبد المجيد دياب، دار المعارف بمصر.

٨- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية بمصر.

٩- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي بمصر.

١٠- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي، الطبعة الثانية ١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م.

١١- الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد، عارضه بأصول وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر.
١٢- كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي.
١٣- كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية.
١٤- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٦م - ١٣٧٥هـ.
١٥- مختار الصحاح، تأليف محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، الطبعة الأولى ١٩٦٧، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان.